بسم الله الرحمن الرحيم

جامعـــــة أمّ درمـــــان الإســـــلاميّة
معهد بحوث ودراسات العالم الإسلاميّ
قســـــم الدراســـــات النظريـــــة

الرّثاء عند النّساء
حتّى العصر العبّاسيّ

بحث مقدّم لنيل الماجستير في اللّغة العربيّة وآدابها

إعداد الطالبة
الرّسالة خالد قسم السيد منصور

إشراف
د. عبد الرّحمن عطا المنّان محمّد

١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

العنكبوت: الآية ٥٧.

ويقول الشاعر:

من عاش إمّا مات أو كَائنتْ له في كُلّ يومٍ عَبرةٌ تَتَحدّرُ

الشّريف المرتضي

ويقول آخر:

والناس مَنْ صَنْعَة الخلاّقِ كُلُهُم كالخطّ يُقرَأُ حيناً ثُمّ يندرسُ

أبو العلاء المعرّي

الإهداء

إلى والدي الّذي كان عونه خير زاد لي
وإلى والدتي التى كان لدعائها أبلغ الأثر
وإلى إخوتي الّذين ساعدوني كثيراً
وإلى كلّ من قدّم لي المساعدة ماديّة أو
معنويّة
أهدي هذا الجهد المتواضع

الباحثة ، ، ،

شكرٌ وعِرفانٌ

وفاءً واعترافاً بالفضل والمعروف لأهله ، أتقدّم بخالص الشكر وعظيم الامتنان لأستاذي الفاضل الدكتور عبد الرحمن عطا المنان حفظه الله ؛ عرفاناً بفضلٍ سبغه عليّ ، حين أفاض عليّ من وافرِ علمه الغزير ، وطوّق جيدي بجميلِ حلمِه وسعةِ صدره ، ثمّ كرّمني بالإشراف على رسالة الماجستير الّتي رعاها منذ أن بدأت فكرةً ، وتابع خطاها موجّهاً ومرشداً إلى أن اكتمل بناؤها ، ولم يبخل عليّ بنصحٍ أو إرشاد ، وجزاه الله خير الجزاء ، ومتّعه بالصّحّة والعافية ، وجعله ذخراً للعلم والمعرفة.

والشّكر موصولٌ إلى أسرتي الكريمة فلهم عليّ فضلٌ لا ينسى حين اهتموا لأمري وشجّعوني ؛ فامتناني وحبّي أكبر وأعظم من أن تترجمه كلماتي . وإنّي لا أنسى أفضال إخواني وأخواتي ، وعلى رأسهم الأخت شادية بابكر الّتي قامت بطباعة هذا البحث ، فجزاها الله عنّي كلّ خيرٍ. والشكر موصول إلى مكتبة أمّدرمان الإسلاميّة ، ومكتبة الدّراسات العليا بجامعة القرآن الكريم .

وأخيراً ، أتقدّم بالشّكر والعرفان لكلّ من نصح وسدد وهدى وأرشد ، وكلهّا عندي أيادٍ سابقة.

الباحثة ، ، ،

المقدّمة

الحمدُ لله القائل في محكم تنزيله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[1]

الموت، ذلك البلاء الذي يطوي رقاب كلّ حيّ، ويطيح بكلِّ عرشٍ وجبروتٍ وسلطان، هو تلك المحطة التي ينزل فيها كل من نفدت أيّامه، هو ذلك السيف المسلّط على رقاب العباد، وهو ذلك الشيء المتعدّد لكلّ شخص، الهارب منه كل حيّ. ونظراً لقسوته وغلظته وشدت أصبح الكلّ ينفر منه ويفر من وجهه. والفئة القليلة الّتي تتمنّاه لا تستطيع أن تواجهه. ونظراً لهذه الأسباب وتلك تنحّى النّاس عن الخوض في خضمّه العميق، وتجنّبوا التّعليق عليه والوقوف ببابه؛ خوفاً وخشية من الانزلاق، أو هلعاً أو رهبة من الانحراف في تياره الشديد.

ونظراً لقلّة الموضوعات الّتي تناولته بالبحث، كان عليّ أن أضيف شيئاً جديداً، وأن أعمل جاهدةً لإزالة الفجوة الّتي بينه وبين النّاس، ورغم تساؤل نفر من الناس عن سبب إعجابي بموضوع يلفّه الحزن والكآبة واللوعة والبكاء، تلوح إجابة في أفق نفسي: إنّه الصدق الذي صبغ هذا اللّون الفنيّ وميّزه عن سائر الفنون الأدبيّة الأخرى. صدق الأحاسيس والشعور ونبلها ممّا يعكس أثراً واضحاً في أشعار قائليها. ومن خلال تتبّعي لدراسة النّصوص الشّعرية تجلت أهمية الموضوع وثراؤه الفنيّ؛ الأمر الّذي دفعني للخوض في أعماقه. ونظراً لتباين الموقف من شخص

---

[1] – سورة البقرة، الآيات (١٥٥ – ١٥٦).

لآخر، لم يجيء اختياري لهذا الموضوع الرثاء عند النساء حتّى العصر العباس اعتباطاً، بل لأنّه أزهى العصور الإسلاميّة. وصفحاته المشرقة أنصع الصفحات في التّاريخ السّياسيّ والأدب العربيّ.

فالحمد لله الّذي هيّأ لي هذه السانحة من خلال اطّلاعي على ديوان الخنساء، ومنذ ذلك الحين شدّني رباط وثيق وميل جارف لأقف مراراً على هذا الموضوع: (الرثاء عند النساء حتّى العصر العباسي). وبالفعل، طرقت معظم القصائد التي وردت في الرثاء سواء كان رثاء نفس أو إخوة أو آباء أو أزواج أو أبناء.

كان لصدق المشاعر عند المرأة ونبلها الدّافع الأساسي في تتبعي لهذا الفنّ واستقصائي له، ومن ثمّ تكوّنت لديّ فكرة الخوض في خضمّه العميق، والإبحار في نبعه الذي لا يجف ولا ينضب، وخوض النساء فيه أكثر من الرّجال؛ لأنّ عاطفة النّساء أقوى من عاطفة الرّجال، بل نجد بكاء المرأة يكون عادة في فقد أحبّتها أكثر من بكاء الرجال؛ لسموّ هذه العاطفة التي تظهر رثاء النساء.

وهذا الموضوع يهدف إلى إبراز ملكات المرأة في قول الشعر عامّة، وتفوّقها على الرّجل في غرض الرثاء. كما يهدف إلى جمع ما تناثر من قصائد الرثاء في كتب الأدب والمجاميع الشعريّة.

فمن كلّ ذلك ظهرت لديّ مؤشّرات تنبئ بنضوج تلك الفكرة، وأخذتها مأخذ الجد عندما درست أفكاري على فكرة البحث (الرثاء عند النساء حتّى العصر العباسيّ) واخترت هذا العصر لما فيه من نضج فني لبلوغ الشعر ذروته وتمامه، ولأنّه أزهى عصور الأدب. حينها جمعتُ فكرتي وطرحتّها لأستاذي الدكتور عبد الرحمن عطا المنان، فشجّعني وأثنى على هذا المنحى ممّا دفعني إلى الشّروع في عمل الخطّة، ومن ثمّ بدأت جاهدةً لأرى ثمرة جهدي المتواضع.

منهج البحث:

اتّبعتُ في هذا البحث المنهج التّحليليّ الذي يقوم على تفكيك عناصر الموضوع وتشريحه إلى أجزاء صغيرة بقصد الوصول إلى المكوّنات الأولى.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى إبراز ملكة الشّاعرة في قول الشّعر عامّة، وتفوّقها على الرّجل في غرض الرّثاء، كما يهدف إلى جمع ما تناثر من قصائد في كتب الأدب والمجاميع الشّعريّة والفهارس العلميّة ووضعها في بحث منفرد يسهل وصول القرّاء والباحثين.

هيكل البحث

قسّمتُ البحث إلى تمهيدٍ وأربعة فصول، تناولت في التّمهيد: الرّثاء كغرضٍ شعريٍّ ودور المرأة في ذلك. ولقد شاركت فيه أكثر ممّا شاركت في غيره؛ لأنّها أشجى الناس قلوباً وأشدّ حزناً وجزعاً ولوعة وأغزر دمعاً وأحرّ كبداً.

والفصل الأوّل: قسمته إلى خمسة مباحث، المبحث الأوّل: معنى الرّثاء لغة واصطلاحاً. والثاني: حاجة الإنسان للرّثاء. والثالث: فوائد الرّثاء. والرّابع: أنواع الرّثاء. والخامس: تطوّر أساليب الرّثاء.

وفي الفصل الثاني: تحدّثتُ عن رثاء النساء في العصر الجاهليّ، وقسّمته إلى خمسة مباحث أيضاً. في الأوّل تحدثت عن: أثر التّناحر القبليّ في ظهور فنّ الرّثاء. والثّاني عن: مكانة المرأة في المجتمع الجاهليّ، وفي الثّالث: طبقات المرثيّين. وفي الرّابع: فضائل المرثيّين. وفي الخامس: تحدّثتُ عن الخصائص الفنيّة لشعر الرّثاء عند المرأة الجاهليّة.

وفي الفصل الثالث تحدّثتُ عن رثاء النساء في صدر الإسلام وعهد بني أميّة، وقسّمته إلى خمسة مباحث: تناول المبحث الأوّل: أثر الإسلام في التحوّل الاجتماعيّ للمرأة. وفي المبحث الثاني: دور المرأة في الحروب الإسلاميّة. وفي الثّالث: رثاء النّساء لشهداء الإسلام. وفي الرّابع: المعاني المستحدثة في رثاء النّساء. وفي الخامس: الخصائص الفنيّة في شعر الرّثاء عند المرأة الإسلاميّة.

وفي الفصل الرابع: تحدّثتُ عن رثاء النّساء في العصر العبّاسيّ، وقسّمته إلى خمسة مباحث: المبحث الأوّل: عن دور المرأة في ظهور الفرق الإسلاميّة. والثّاني عن: رثاء النّساء للخوارج. وفي الثّالث: رثاء النّساء للأبناء والأزواج. وفي الرّابع: اختلاف صور الرّثاء وتطوّرها. وفي الخامس: الخصائص الفنيّة في شعر الرّثاء للمرأة في العصر العباسيّ.

ثم صنعتُ للبحث خاتمةً أدرجتُ فيها ما استخلصته من هذه الدّراسة، وألحقتُ بها ما رأيتُ من توصياتٍ تساهم مستقبلاً في إثراء هذا الموضوع الهامّ. وذيّلتُ البحث بثبتٍ للمصادر والمراجع، وقائمة محتوى البحث.

تمهيد

الرّثاء كأحد أغراض الشّعر وجد حيزاً كبيراً في التراث الشعريّ عند العرب على مختلف أزمنته وعصوره. وقد قيل أنّه لم يقل في شيء قط كما قال في هذا الباب؛ لأنّ الناس لا ينفكون من المصائب. ومن لم يثكل أخاه ثكله أخوه، ومن لم يعدم نفيساً كان هو المعدوم دون النفيس[١] وحقّ الناس الصبر على النوائب، إذ كانت الدنيا دار فراق ودار بوار، لا دار استواء. وعلى فراق المألوف حرقة لا تدفع، ولوعةٌ لا تردّ، إنّما يتفاضل النّاس بصحّة الفكر وحسن العزاء والرغبة في الآخرة وجميل الذّكر[٢]. وعلى الرغم من أنّ التّعبير عن الحزن قد يتمّ قدم الإنسان نفسه، إلاّ أنّ الصورة البدائية له ليست معروفة تماماً، شأنها شأن فنون القول الأخرى، إلاّ أنّ بعضهم يرى أنّ المرتبة نشأت نشأتها الأولى من ندب النوائح المجرّد من القوالب، ولهذا قلب تعهده بعد ذلك على النساء[٣] أو لعلّه للفهم الذي كان لا يتعدى عن كونه تعاويذ تقرأ على روح الميت[٤] نتيجة أن تطفئ غضب المقتول وتنهاه أن يرجع إلى الحياة فيلحق الأضرار بالأحياء الباقين.[٥]

وبعضهم يرى أنّ الرثاء كان في بداياته يرجع إلى نداءات السجع بأقوال قصيرة منمقة مكونة من سطور قليلة، وأحياناً من أغاني الرّجز. وقد تكون من قصائد أكثر طولاً[٦] ويرى بعضهم أنّ من مظاهر قد هذا الفن (ما نقش على قبور الأقيال والأذواء في البحث والأمراء في الحيرة وعند الغساسنة في الشام، فعلى قبورهم كانوا يكتبون أسماءهم وألقابهم؛ تخليداً لذكراهم وتمجيداً لأعمالهم. وكانت هذه هي الصورة الأولي للتأبين والإشادة بفضائل الميت. على أنها صورة ساذجة).

---

[١] – محي الدين الفضل الزبيدي: تاج العروس، د ط، د ت، دار الفكر للطباعة والنّشر، مج ١٠، ص ١٤٤.

[٢] – المبرّد: الكامل في اللغة والأدب، د ط، د ت، مؤسسة المعارف، بيروت، ص ١٧.

[٣] – كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربيّ، نقله للعربية عبد الحليم النّجّار، ط (٢)، د ت، دار المعارف، مصر، ١٦٤/١.

[٤] – المصدر نفسه، ص ١٦٤.

[٥] – المصدر نفسه، ص ١٤٧.

[٦] – صالح مخيمر: رثاء الأبناء، ط (١)، د ت، مكتبة المنار، الأردن، ص ١٣٧.

ثم تطورت هذه البدائيات وهذه الصور حتّى وصلت مرحلة النضج من العصر الجاهلي، حيث نجد أنّ الصورة الجاهلية للتأبين صورة معقدة، لا بما فيها من طول فحسب، بل فيها أيضاً من وسائل فنية كثيرة[١] ثمّ نجد النواح والندب على الميت وسيلة للتكسّب، حيث كان الناس يستأجرون بعض النساء للقيام بدور النائحات، فأصبح هنالك محترفون ومحترفات يعولون في المأتم بأشعار تصنع لهم[٢].

وقد صوّر لنا ابن زهير النّائحة حين وضع ناقته قائلاً:[٣]

كأنَّ أوْبَ ذِراعَيْها وقد عَرِقَتْ ... وقد تَلَفَّعَ بالقُورِ العَسَاقيلُ
شَدَّ النَّهارِ ذِراعَا عَيْطَلٍ نَصَفٍ ... قامَتْ فَجاوَبَها نُكْدٌ مَثَاكِيلُ
نَوَّاحَةٌ رَخْوَةُ الضَّبْعَيْنِ ليسَ لها ... لما نَعى بِكْرَها النَّاعونَ مَعْقولُ[٤]

هذه الصورة الجاهلية للنائحة كانت تصاحبها لكثير من العادات الأخرى التي كنّ يعبرن بها عن حزنهن، حيث كن يلطمن خدودهن، ويحلقن رؤوسهن أو يشققن جيوبهن، إلاّ أنّ الإسلام حرّم هذه العادة بكثير من الأحاديث الصحيحة كقوله ﷺ: ﴿ليس منّا من لطم الخدود، وشقّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهليّة﴾[٥] إلاّ أنّه لم يحرّم البكاء بالصورة التي تحفظ كرامة المرأة بحيث تخلو من هذه العادات؛ لأنّ الحزن صفة غالبة أودعها الله تعالى في قلب الإنسان فنجد الرّسول ﷺ يقول لنساء المسلمين وهن يبكين قتلى أحد: ﴿وحمزة ألا يبكيه أحد؟﴾ فأخذن يبكين حمزة، ولكن لا كما كانت تفعل الجاهليات. والرسول ﷺ نفسه دمعت عيناه عند وفاة ابنه إبراهيم؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف اليقين وكان نظيراً لإبراهيم عليه السلام، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبّله

---

[١] – شوقي ضيف: الرّثاء، د ط، د ت، دار المعارف، مصر، ص ٧.

[٢] – المرجع نفسه، ص ١٢.

[٣] – عبد الله الطيّب: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصياغتها، ط (٢)، ١٩٩٢م، دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر، ٣٣٦/١.

[٤] – جمال الدّين بن محمّد الأنصاريّ: أبيات شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح محمد ﷺ، تحقيق محمود حسن أبو ناجي، ط (٢)، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م، مؤسّسة علوم القرآن، دمشق، سوريا، ص ٢٦.

[٥] – ابن حجر العسقلانيّ: فتح الباري شرح صحيح البخاريّ، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، د ط، د ت، نشر وتوزيع رئاسة إدارة البحوث العلميّة، المملكة العربيّة السعودية، ١٦٥/٣.

وشمه. ثمّ دخلت عليه بعد ذلك، وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: يا ابن عوف! إنّها رحمة. ثمّ أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: ﴿إنّ العين لتدمع، والقلب ليحزن، ولا نقول إلاّ ما يرضي ربّنا، وإنّا لفراقك يا إبراهيم لمحزنون﴾[1]

وقد كانوا أيضاً يعقرون على قبر الميّت تكريماً لفضله بين النّاس. والعلماء مختلفون في الباعث على العقر، قال ابن السيد: قال قوم: إنّما يفعلون ذلك مكافأة للميت على ما كان يعقده من الإبل في حياته للضّيفان[2] وأشار زيادٌ الأعجم في رثائه المغيرة بن المهلب إلى هذه العادة قائلاً:

فإذا مررتُ بقبره فاعقر به كوم يكون أخا دمٍ وذبائح[3]

وقد منح قبر الميت وسيلة من وسائل التعبير عن الحزن وتعظيم الميّت، فلا يعقل أن يقف الشعر مكتوف الأيدي دون أن يشارك في التعبير عن هذه الجراح والأحزان بوصفه أرقى وسائل التّعبير عن النّفس في جميع حالاتها، فجادت القرائح، وذرفت الدّموع بالكثير من القصائد الخالدة التي أشاد بها النقّاد على مرّ العصور.

---

[1] – ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٣/ ١٧٢.

[2] – أحمد الحوفيّ: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، د (٤)، د ت، مكتبة نهضة مصر، مصر، ص ٤٩٢.

[3] – الأبيات في: الكامل للمبرّد، ص ١٦٥.

الفصل الأوّل
فنّ الرّثاء

المبحث الأوّل: الرّثاء في اللغة والاصطلاح.

المبحث الثّاني: حاجة الإنسان للرّثاء.

المبحث الثّالث: الرّثاء تعبير إنسانيّ.

المبحث الرّابع: أنواع الرّثاء.

المبحث الخامس: تطوّر أساليب الرّثاء.

الرّثاء من الأغراض الشّعريّة التي اهتمّ بها العرب اهتماماً بالغاً، وعنوا بها عناية عظمى، وقد أخذ من فراغهم وتفكيرهم الكثير، ونقل إلينا منه القدر الوافر، واتّسع الخوض فيه والحديث عنه لصور رائعة من البلاغة، وأساليب متنوّعة من الخيال؛ لأنّه مظهر من مظاهر فجيعتهم في أصفيائهم الّذين فقدوهم، أو إخوانهم الّذين فارقوهم، وأهليهم الّذين هجروهم. وهو صنو المديح والفخر: تبرز فيه صفات الشّخص، وتبدو فيه ملامح الإنسان، وتتزاحم فيه المزايا الّتي تدلّ على فداحة المصاب وعظم الفجيعة وهول النازلة وضخامة الكارثة. والفرقُ بينه وبين المدح أن المدح ذكرٌ لمحاسن الأحياء، أمّا الرّثاء فذكرُ محاسن الأموات.

أمّا من ناحية بنية القصيدة بشكلٍ عام فقد لاحظنا أنّ من عادة العرب الاستفتاح بالغزل، وتناول جملة من المعاني في القصيدة الواحدة، ولكنّ الرثاء لا يكون فيه إلاّ التفجع والحسرة والتلهّف والأسى واستشعار الجزع إن كان الميّت من ذوي الرّياسة والقدر. وشعر الرّثاء عند العرب قبل الاسلام له شأن كبير لِما كان عندهم من حروب تفتك بالشجعان، وتلثم المغاوير من الأبطال. وقد شاركت فيه المرأة أكثر ممّا شاركت في غيره من أغراض الشّعر الأخرى؛ لأنّ المرأة أشجى قلباً، وأشدّ جزعاً، وأحرّ كبداً. وأسلوبها في هذا الفنّ يحملُ صدق القول، والحقيقة، والمنطق، والاعتدال في التّصوير والصّراحة في الوصف، والإنصاف، والحكم والاتّزان[1] فهم (لا يزعمون أنّ السّماء قد وقعت على الأرض، وأنّ الأفلاك تحيرّت في مدراجها، وإنّما يبكون على المرثيّ صبره في المكروه، ووفاءه في الملمات، ودفاعة عن الحق، وغضبته للكرامة، وترفّعه في الدّنيا كما يقول دريد بن الصمّة في رثاء أخيه:

فإنْ يَكُ عبدُ اللهِ خلّى[2] مكانه ... فما كان وقّافاً ولا طائش[3] اليَدِ

كميش[4] الإزارِ خارجٌ نصفُ ساقِه ... بعيدٌ من الآفاتِ[5] طلاّعُ أنْجُدِ

قليلُ التّشكّي للمصيباتِ حافظٌ ... مِنَ اليومِ أعْقَابَ الأحاديثِ في غَدِ

وهوَّنَ وَجْدِي[6] أنّني لم أقل له ... كذبتَ ولم أبخل بما مَلَكت يَدِ

---

[1]- إبراهيم على أبو الخشب، وأحمد عبد المنعم: بحوث في الأدب الجاهليّ، د ط، د ت، دار الفكر العربيّ، ص ١٧٧.

[2]- خلىّ مكانه: مات.

[3]- طائش اليدِ: يخطئ الرّمي في القتال.

[4]- كميش: قيل: من الانكماش، كنايةً عن الجدّ والاهتمام الّذي يكون من التشمير.

[5]- بعيدٌ عن الآفات: متغلّب على الصّعاب. والمعنى أنّه لم يحثّ على عجز.

[6]- وجدي: حزني. والمعنى: لم اغضبه بتكذيب او بخل.

المبحث الأوّل

معنى الرّثاء في اللّغة والاصطلاح

الرّثاء لغةً:

هو مدح الرجل بعد موته، وبكاؤه، وتعداد محاسنه، ونظم الشّعر فيه. واختلف اللّغويون في أصل ألفه، فمنهم من جعلها واواً، فقال: رثوت الميت إذا بكيته وعددت محاسنه، وكذلك إذا نظمت فيه شعراً.

ومنهم من جعلها ياءً، فقال: رثي فلان فلاناً يرثيه رثياً ومرثيةً إذا بكاه بعد موته. فإن مدحه بعد موته قيل رثّاه (بالتّضعيف) يرُثيه ترثيةً.

ورثيتُ الميت رثياً ورثاً ومرثاةً ومرثّية: مدحته بعد الموت، وبكيته. ومنهم من حمره فقال: رثأتُ الرجل: مدحته بعد موته (لغة في رثيته). ورثأت المرأة زوجها كذلك وهي المرثيّة.

وقالت امرأة من العرب: رثأت زوجي بأبيات، وهمزت، أرادت: رثيته.

قال الجوهريّ: وأصله غير مهموز.

وقال الفرّاء: وهذا من المرأة على التوهّم؛ لأنّها رأتهم يقولون: رثأت الميّت فظنّت أنّ المرثية منها، ومثل الرثاء التأبين: هو أيضاً مدح الرجل بعد موته وبكاؤه.[١]

وقال متمّم بن نويرة:

لعمري وما دهري بتأبين هالك ولا جزع ممّا أصاب فأوجعا [٢]

الرثاء في اللغة من قولهم: (رثيت الميت رثياً) بالفتح، ورثاء ورثاية بكسرهما.

---

[١] – ابن منظور: لسان العرب، مادّة (رثأ – رثا). والفيروز أبادي: القاموس المحيط، مادّة (رثأ – ورثي).

[٢] – الضّبّيّ: المفضّليات، ص ٢٦٥. وانظر: لسان العرب.

ومرثاه ومرثية مخففة وعلى الأخير اختصر الجوهريّ (ورثوته) أيضاً إذا بكيته وعدّدت محاسنه كرثيتة ترثية. وقيل: الرثي والمرثية: البكاء على الميّت بعد الموت. (وترثيته) [1].

ويقول رؤبة:

بُكاءُ ثَكَلْيَ حَمْيَما فهي ترثي بَاباً وابنيما

والرّثاء: بكاء الميت ومدحه. جاء في لسان العرب: (رثى فلان فلاناً يرثيه ومرثيه إذا بكاه بعد موته. قيل: رثّاه يرثيّة ترثية. ورثوت الميتّ أيضاً إذا بكيته وعدّدت محاسنه. وكذلك إذا نظمت فيه شعراً.

وجاء في جوهر الكنز: (تقول رثي فلان ويقال: رثأتُ بالهمزة)[2].

فالرثاء يوافق المدح في المعاني، ويخالفه في المشاعر. قال ابن رشيق: (وليس بين الرّثاء والمدح فرق إلاّ أنّه يخلط بالرثاء شيء يدلّ على أنّه المقصود به ميتٌ، مثل (كان) أو عند منايه كيت وكيت وما يشاكل هذا ليعلم أنّه ميّت)

وفي الاصطلاح:

هو مدح الميّت أسوة بمدح الحيّ في المديح، وتعداد فضائله وإظهار اللوعة والحزن عليه[3] وهو أن يندب الميّت. ومعناه: التوجّع[4].

---

[1]- محى الدين الفضل الزبيدى: تاج العروس، د ط، د ت، دار الفكر للطباعة والنّشر، ١٠/ ١٤٤.

[2]- أبو الفرج الأصفهانيّ: الاغانى، د ط، د ت، دار الثقافة. البحاوى وزملاؤه: أيّام العرب في الجاهليّة، ص١٦٦.

[3]- المفيد الغالى في الأدب الجاهليّ، ص ٧٣ – ٧٤.

[4]- ابن منظور: لسان العرب، مادة (رثي)، ٥/ ١٣٨.

المبحث الثاني

حاجة الإنسان إلى الرّثاء

إذا كان الدّافع للمدح إعجابٌ يمازجة الطمع، فالدافع إلى الرثاء إكبارٌ يخالطه الوفاء والجزع، أو حبٌّ يساوره التفجّع والتحسّر. فدافع الرّثاء نبيل المنشأ، شريف المقصد، ينبع من حزن الشاعر على إنسان قطع الموت صلته بالأحياء، فليس إلى نيل الصلة منه سبيل.

فالرّثاء يهدف إلى إفراغ النفس من لواجع لا شفاء لها منها إلاّ بالبكاء على الراحل، وتعداد مناقبه. ولا نستعبد أن ينبع بعض الرثاء من إحساس الشّاعر بالضّعف أمام الموت والعجز عن مغالبته، فكأنّه حينما يحزن على الفقيد يحزن على نفسه إذ يشعر . على نحوٍ ما . أنَّ موت غيره نذير بموته. وكلّما كان الفقيد أقرب إلى الفاقد كان إحساسه بالخسارة أشدّ، وتفجّعه على الميّت آلم لأمرين أوّلهما أنّ الفقيد يحمل معه بعضاً من حياة الفاقد كالذكريات والأواصر الّتي جمعتهما. والثّاني: أنّ رحيل الراحل إيذانٌ للمقيم بالسفرالقريب كما قال أكثم بن صيفيّ: (وقد مضيت لنا أصول نحن فروعها فما بقاء الفروع بعد أصولها).

وقال قسّ بن ساعدة:

لما رأيت إني مورداً للموت ليس لها مصادر

أيقنت أنّي لا محا لة حيث صار القوم صائر

ومن هذا الرثاء نجد أنّ كثيراً من مراثي الجاهليّين في القتلى تحدث على التّصميم والانتقام والمفاخرة بالمآثر، فبالرغم من ذلك يجد الرّاثي ما ينفّس به عن نفسه من شدة الألم على فراق ميّته.[1]

فالرّثاء مظهر من مظاهر الفجيعة في الأصفياء، فعندما يموت للإنسان شخص عزيز لا ينفّس عن نفسه إلاّ إن رثاه وبكي عليه وعدّد محاسنه. لهذا نجد المرأة شاركت فيه أكثر

[1]– شوقي ضيف: الرّثاء، ط (٢)، د ت، دار المعارف، ص ١٦١.

ممّا شاركت في غيره من أغراض الشّعر الأخرى؛ لأنّ عاطفتها أقوي. ومن هذا إذا استعرضنا رثاء النساء رأيناه لا يقتصر على وصف أحزانهنّ فحسب، بل نجد فيه تعبيراً عن عمق أحزانهن، ومن ذلك نجد الخنساء وقد أجمع الشعراء أنّه لم تك قط امرأة قبل الخنساء ولا بعدها أشعر منها[1] ذلك لأنّ الخنساء قد صبغها الدهر بعمق أحزانها في فقد أبنائها وإخوانها، فهذا الحزن العميق لولا رثاءها لما خففّت عن حزنها العميق وبالغ تأثّرها، وهذا ما قالته في قصائد مشهورة في أخيها صخر، حتّى إنّ الباحث ليحار فيما يختاره منها لجودة شعرها فهي تقول:

فما عجول على تحن له ... لها حنينان إعلان وإسرار

ترتع ما رتعت حتّى إذا ادّكرت ... فإنّما هي إقبال وإدبار

لا تسمن الدهر أرض وإن ربعت ... فإنّما هي تحنان وشجار

يوماً بأوجد منّي يوم فارقني ... صخر وللدهر إحلاءٌ وإمرار [2]

إلى قولها:

قذي بعينك أم بالعّين عوارُ ... أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار

تبكي لصخر هي العبرى وقد ذرفت ... ودونه من جديد الترب أستار

لا بدّ من موتةٍ في صرخها غيرُ ... والدّهر في صرفه حول وأطوار

ومن هذا نجد هذا الشعر المصاغ من الحزن العميق والدمع الغزير السجين الذي أسلمها إلى الضّنى، ونال من نور عينها.

---

[1] – الخنساء: أنيس الجلساء، ص ٧٣ – ٧٥ – ٧٦ – ٧٩.

[2] – المرجع نفسه، ص (١ – ٣٠).

وقصائد الخنساء في وصف أحزانها كثيرة أغلبها رقيق اللفظ حسن السبك لطيف التصوير، كشفت فيه عمّا يخالج نفسها ويريحها من الحزن العميق. فكلّ هذا يجعلها تنفّس عن روحها من شدّة حزنها، فهي أيضاً تقول:

لا تَخَلْ أنَّنِي لقيتُ رواحاً بعد "صخرٍ" حتّى أثبن نواحا

من ضميري بلوعةِ الحزن حتّى نَكَأَ الحزنُ في فؤادي فَقَاحا

لا تَخَلْني أنّي نسيتُ ولا بُلَّ فؤادي ولو شَرِبْتُ القَراحا

ذِكْرُ صخرٍ إذا ذكرتُ نداهُ عِيْلَ صبري برزئة ثمَ باحا [1]

في هذه الأبيات تكشف لنا الخنساء عمّا في نفسها من الحزن إلىانع الّذي انتابها، ووصفت لنا هذا التعبير العميق الّذي خفّف علىها ألمها وكربتها على فقدها الجلّل.

فعندما يقول الراثي بيتاً يرثي به عزيزاً علىه يكون في حاجة ماسّة لذلك؛ لأنّ الرثاء يكشف له مظاهر حزينة كشفاً صادقاً ودقيقاً. ثمّ يلجأ إلى وصف عينه وشدة ألمها على الفقيد، وتقرّحها، ويسهب في حثّهما بالدّمع الذي يطفئ به حرارة القلب، ويخفّف عن شدّة الوجد ولوعته و يكثر هذا كثرة ملحوظة في رثاء الأبناء الذي يدلّ على الجوارح وكوامن الأسى والحزن على النّفس الإنسانيّة [2].

كما كان لكثيرٍ من قصائد العزاء دور فاعل ومؤثّر في تخفيف الكثير من الأحزان على المكلومين. فقد رُوِيَ عن الأصمعيّ أنّه نزل على امرأة من بني عامر بن صعصعة وقد مات لها ابنها وهي في أشدّ حالات الجزع والحزن والألم عليه، ومع ذلك قامت تعدّ الطّعام لضيفها الأصمعي. فقال الأصمعيّ مشفقاً على حالها: (ياهذه! أئنّك لفي شغل عن هذا، فقالت: والله لا تجوز بحتى الاّ مقرياً. ولكن أنشدني أبياتاً أسلو بهن على نفسي من هذا الحزن، فإنّي أراك نزوعياً. فأنشدتها أبيات نويره بنت حصين المازني يرثي ابنه يقول فيها:

---

[1] – رياض الأدب، ٢/ ٢ – ٣.

[2] – ابن عبد ربه : العقد الفريد، ٣/ ١٩٠.

إنيّ أُروى للشامتين تجلدّى وإنيّ كالطّاوى الجنّاح على كسره

يرُى واقعاً لم يدَرْ ما تحت ريشة وإن ناء لم يسطع نهوضاً على وكره

فلولا سرور الشامتين بكوتي لما رفات عيناى من لا لعَدِ يجريٍ

يكف آذاه بعدها بذل عرقِةِ ويحلم حلماً لا يزمُ ولا يزرِيِ

ثمّ يقول في آخرها:

فتًى شعشع يروُى السنَّان بكفة ويجمعُ للمولي العطاء مع النّصرِ

فقال الأصمعي: عندما سمعت هذه الأبيات فكأنّي والله زبرتُها في صدرها. فما زالت تنشدها وتصلح طعامي حتى قرتتي ورحتُ من عندها.[١]

فمِن هذه الأبيات ندرك تماماً حاجة الإنسان للرّثاء لأنّه يساعد في إزالة الحزن عن المكلومين سواءٌ كان ناظماً للقصيدة أو سامعاً لها. ومن هنا ندرك تماماً أنّ قصيدة الرّثاء لم تكن مجرّد منظومةٍ يعرض فيها الناظم صفات الفقيد، بل إنّ لها غايةً أسمى من ذلك؛ فالشّاعر يعرض فيها أحاسيسه ومشاعره تجاه الموت وفقد الأحباب والتّعبير عنهم.[٢]

---

[١]- أسامة بن منقذ: لباب الأدب، تحقيق أحمد محمّد شاكر، ط (١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م)، مكتبة لويس سركيس، القاهرة، مصر، ص ٤١٠.

[٢]- أبو على الغالى: الأمالى، ١/ ٢٥٨.

المبحث الثالث

الرّثاءُ تعبيرٌ إنسانيٌّ

الرّثاء من الأغراض الشعريّة التي لها فوائد كثيرة في حياة الإنسان بل الأمّة جمعاء. والسّمة البارزة في الرثاء التوجّع، والتفجّع، والحسرة، والتلهّف، والأسى، واستشعار الجزع على الشّخص المرثيّ، غير أنّنا نجد فيه ـ أيضاً ـ تعداداً لصفات الميّت من صبره في الّدنيا في الملمّات، ودفاعه عن الحقّ، وغضبته للكرامة، وترفّعه في الدنيا. أي أنّ الرّثاء قد أتاح للشّعراء مجالاً فسيحاً للتّغنّي بتلك الصّفات والفضائل والخوض في مجالاتها الواسعة.

ونجد أن المرأة قد شاركت في الرثاء أكثر ممّا شاركت في أغراض الشّعر الأخرى ـ كما أشرنا في الأبواب سالفة الذكر ـ وقد اتّسع الحديث فيه لصورٍ بلاغيّة كثيرة، وأساليب متنوعة من الخيال، لأنّه مظهرٌ من مظاهر فجيعة الشعراء في أصفيائهم الّذين فقدوهم، وإخوانهم الّذين فارقوهم أو أهليهم الّذين هجروهم. لذا كان لا بدّ أن تتزاحم فيه التعابير الّتي تدلّ على فداحة المصاب، وعظم الفجيعة.

ونجد الشّعراء قد نشطوا في هذا الفنّ نشاطاً بارعاً وواسعاً، إذ نجدهم في موتِ كلِّ خليفةٍ أو وزيرٍ أو قائدٍ مشهورٍ، تفيض أقلامهم بتعبيرات الرّثاء والتّأبين مصوّرين فجيعة الأمّة ومحنتها بموته، واصفين أخلاقه العظيمة وبطولاته النادرة، فهو شعرٌ مليءٌ بالحزن علىهم من ناحيةٍ، مُلهِبٌ لحماسة النّفوس من ناحيةٍ أخرى ذلك أنّ الشّعراء لا يتركون فضيلةً إلاّ ذكروها، وكأنّ هدفهم تخليد ذكرى الميّت وتمجيده تمجيداً يضرم الحمية في نفوس الشّباب للدّفاع عن الأرض حتى الموت. ولا شكّ أنّ لهذه المعاني التي يشيعها الرّثاء أثراً كبيراً في بثّ هذه الرّوح الحماسيّة وإذكاء الرّغبة الحقيقيّة للدّفاع عن المقدّسات [1].

[1] – إبراهيم علي أبو الخشب، و احمد عبد المنعم: بحوثٌ في الأدب الجاهليّ، بيروت، ص ١٢٨.

ومن الرّثاء أيضاً رثاء الأبطال، فكان يحدث أن يخرّ بطلٌ صريعاً في ميادين القتال، فيندفع الشّعراء بنظم المراثي الحماسيّة الّتي تبثّ الشّجاعة في القلوب وتدفع إلى الاستشهاد تحت ظلال الرماح ذوداً عن حرمات الوطن، ومن ذلك مراثي أبي تمام لمحمّد بن حُميد الطوسي الطائي، فإنه وقع ببابك وجنوده لعهد المأمون وقائع ملأته هو وعسكره فزعاً ورعباً، ولكن حدث في آخر وقعة أن اندفع ابن حميد في مضيق حرج، والتفّ به جنود بابك، فظل يدافعهم ويقاومهم حتى إذا أحيط به لم يستسلم، ولم يُلْقِ السلاح حتى قُتل عزيزاً كريماً. وحزنت الأمّة حزناً عميقاً لموته، وانبرى أبو تمّام لرثائه، فألف فيه مراثى رائعة صوّرت جلده وصبره في القتال حتّى الموت. يقول فيها: [1]

فتى كلّما ارتاد[2]الشّجاع من الرّدى مفرّاً غداة المأزق ارتاد مصرعا

فما ترم عن عمر تدانى به المدى فخالك حتّى لم تجد فيه منزعا[3]

فما كنت الا السيف لاقى ضريبة[4] قطعتهما ثم انثنى فتقطعا

وفيما يقول:

وهم بك الناعي فإن كان أسمعا وأصبح معنى الجود بعدك للقعا

ومن الأبطال الّذين بكاهم الشعراء في الجاهليّة، وعبّروا عن مدى حزنهم تعبيراً قويّاً ولعل ذلك ما جعل الخنساء تقول في العزاء

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلتُ نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن أعزّي النفسَ عنه بالتأسّي

---

[1] – الديوان، طبعة بيروت، ص ٣٣٥.

[2] – ارتاد: طلب.

[3] – المنزع: مكان زع السهام من القوس.

[4] – الضريبة: الرّجل المضروب بالسّيف.

فهي تجدُ ما يعزيها ويسلّيها عن مصيبتها في أخيها. وكان غيرها من الشّعراء يمدّ بصره إلى أفقٍ أوسع فيرى أنّ الحزن والبكاء لا يردّان أحداً، وأنّه حريٌّ به أن يكون جلداً صابراً على المصيبة الّتي ألمّت به، ولا يسشعر خذلانًا ولا صقيعاً.

وأيضاً من فوائد الرّثاء: العزاء في الأهل، فقد كانت عادةً في الجاهليّة أن يعزّي الشّاعر نفسه إذا فقد ناساً من أهله وأشراف قبيلته، فعزاؤه يوجّه قبل كلّ شيءٍ إلى نفسه، ثمّ إلى من حوله. ولمّا جاء الإسلام، ونشأت طبقات الخلفاء والولاة، وأخذت تتألّف حول كلّ خليفة وأميرٍ أو حاكم كبير طبقة من الشعراء تقف نفسها على مديحه وتسليته إن أراد التّسلية، رأينا هذه الطّبقة تقعد حين تلمّ به مصيبة إلى تعزيته فيها. ودار ذلك أكثر ما دار حول فقد الأبناء فلذات الأكباد، فكان الشّاعر إذا مات ابنٌ لخليفةٍ يبادر إلى تخفيف ما ألمّ به بأبياتٍ تحدّ من لوعته، وتخفّف من فجيعته، ويجد بها مكانته في المجال الشعريّ حيث أنّه يمدح خليفة أو يرثي أميراً او حاكماً. وإذا كان رثاءً يذكر فيه أنّ الموت حقٌّ واجبٌ على النّاس، فكلّ نفس ذائقة الموت، وكلّ إنسان راحل. وفي قول بعض الشّعراء لعمر ابن عبد العزيز في وفاة ابنه عبد الملك:

تعزّ أمير المؤمنين فإنّه لِمَا قد ترى يعزى الصّغير ويولدُ

هل ابنك إلاّ من سلالة آدم لكلٍّ على حوض المنيّة موردُ [1]

وأيضاً من فوائد الرثاء وقوف الشّعراء على مراثي الخلفاء وإكثارهم في ذلك كما أكثروا من الحديث عن خسارة الدين بموتهم وانهيار العرش وأركانه بفقدهم. وفي ذلك يقول الشّجع معزّياً هارون الرشيد في ابنٍ له مات شابّاً:

ونقصُ من الدين ومات أهله نقصُ المنايا من بني هاشم

قدمته فاصبر على فقده إلى أبيه وأبي القاسم

وهو يريد بأبي القاسم الرّسول ﷺ يقول له: إنّ مصيبتك في ابنك هي في ميزان حسناتك يوم القيامة، فقد قدّمته فلا تجزع، واصبر حتى يكتب لك في باقياتك الصالحات.

[1] – شوق ضيف: الرّثاء، ط (٢)، ص ٣٤٩.

ومن تعازى الخلفاء المشهورة في أبنائهم مرثية الشاعر المصريّ كمال الدين بن النية في عليّ ابن الخليفة الناصر لدين الله، ويستهلّها بقوله:

خليفة الله اصطبر واحتسب فما وهي البيت وأنت العمادْ

في العلم والحكم بكم يُقتدى إذا رجا الخطب وضلّ الرشادْ

وأنت لجّ البحر ما ضرّه إن سال من بعض نواحيه وادْ

وكثيراً ما كان الشعراء يحوّلون التعزية إلى البكاء على الفقيد والإشادة به، كأنّهم يرون في ذلك أن يداوا القرح بالقرح، ويعيدوا نفسه إلى رشدها لتسكن بعده فورة الدموع وثورة النواح. فهذا هو شأن العزاء، وكان الشاعر يقول أنّ الناس فداء هذه الخلال، وليس بينهم إلاّ من يعزى الراحل الكريم.[١]

ومن فوائد الرّثاء الوعظ والتّزهيد في الحياة، وبيان أنّها كلّها مصائب. ونجد هذا واضحاً هنا في قول أبي العتاهية:

كأنّ كلّ نعيم أنتَ ذائقة من لذة العيش يحكي لمعة الآلِ

تلعبنا بك الدنيا وانت ترى ماشئت فيها من عبر وأمثالِ

ما حلية الموت إلا كل صالحةٍ أو لا فما حيلةٌ فيه لمحتالِ

وقد عزّى البحتري أحمد بن حُميد المشهورين بالشجاعة والبطولة لعصره في ابنة له ماتت. ومن الغريب أنّه لم يجد باباً يدخل منه إلى عزائه فيها إلاّ ما كان يستشعره العرب في بناتهم، فقد مضى على هذا النحو:

الأسة واجبٌ على الحرَّ إمّا نيةٌ حرُةٌ وإمّا رياء

[١] – المرجع السّابق، ص ٣٥٧.

أتبكي من لا ينازل بالسيف مشُيجا ولا يهزّ اللواء [1]

واشتركّ الشيطان آدم في الجنة لما أغرى به حواء

ولعمرى ما العجز عندى الاّ أن تبيت الرجال تبكي النساء

فهو يحمد له موت ابنته في رأيه، وإن كان القبر كفئُها، ويأخذ في تعداد مساوئ المرأة في رأيه، فهي لا تنازل الأبطال، وقد تلد الأعداء، وهي تنقل المال الموروث من بيت أبيها إلى الأقاصي الغرباء، فالحق أنّ العزاء هنا يتحوّل إلى ما يشبه هجاء المرأة، وهي . على كلّ حالٍ . نظرة مستمدّة من الموروث القديم.

وتلا البحترى كثيرٌ من الشعراء يذهبون هذا المذهب مثل كشاجم في قوله:

تأسّى يا أبا بكرٍ لموت الحرة البكرِ

فقد زوجها القبر وما كالقبر من صهرِ

وعوضت بها الأجر وما كالأجر من مهرِ

فقال نعمة الله وما أولات من شكرِ

ولعلّ من الواجب أن نذكر. هنا . أنّ هذه النّظرة تغيرت في عصرنا، ولم يعد لها ظلّ أو ما شابه الظّلّ في شعرنا؛ إذ أصبح للمرأة شأنٌ كبيرٌ في حياتنا، وأصبحت ركناً قويّاً في معيشتنا الماديّة والعقليّة، فلم تعد هيّنة على النّفوس، بل أصبحت ذات منزلة كبيرة.

١- المرجع السابق، ص٤٩١.

المبحث الرّابع

أنواع الرّثاء

إنّ الدّوافع والمعاني التي ذكرناها قبلُ لا تسود الشعر الجاهليّ كلّه على نحوٍ واحد من السّيادة أو درجات متساوية في التوتّر؛ لأنّ ارتباط الرّاثي بالمرثيّ يحدد درجة التوتّر، ولأنّ طبيعة الفقيد تجدّد المعاني اللائقة برثائه، فقد يكون المرثيّ قريبَ الشّاعر أو صديقه الحميم فيغدو الرثاء عاطفيّاً شديد التّوتر، وقد يكون سيداً أو أميراً فيغلب على الرّثاء الإكبار، وتطغى عواطف الحزن، وتبرز المبالغة لإعلاء شأن الميت. ويمكن تقسيم الرّثاء إلى نوعين: رثاء فرديّ، ورثاء قبليّ.

الرّثاء الفرديّ:

يُعدُّ الرّثاء الفرديّ أصدق نوعي الرّثاء، وأعلقهما بالنّفس، وأقربهما إلى الفطرة والطّرح، وفي هذا النوع تبرز النساء على الرجال، لا بجودة النّظم وعمق المعني، بل بصدق الإحساس وتصوير الفجيعة. قال ابن رشيق: ((والنساء أشجي قلوباً عند المصيبة، وأشدّهم جزعاً على هالك لِمَا رَكّبَ الله ﷻ في طبعهنّ من الخور وضعف العزيمة)).

وحسبك دليلاً على ما قال ابن رشيق شهرة الخنساء في الجاهلية . على كثرة شعراء الرّثاء . بمراثيهما في أخويها: صخر ومعاوية. فإنّها لم تكن لتفوق الرجال لولا هذا الطبع الانفعاليّ الّذي يميز المرأة عن الرّجل ويجعلها أقدر منه على التأثّر والتأثير.

ولمراثي النّساء صور، فقد ترثي الأم ولدها، وتندب الأخت أخاها وتبكي البنت أباها. وفي أيّام العرب مادّة عظيمة للرثاء، شغلت نساء العرب، وملأت قلوبهن بأحداثها الجسام ومآسيها المروّعة. ومن الأمثلة الكثيرة التي حفلت بها أيّام العرب رثاء دخنتوس أباها لقيط بن زراره سيد بن تميم، وكان ((قد عزم على غزو بني عامر للأخذ بثأر أخيه معبد، وبينما كان يتجهز أتاه الخبر بحلف بني عبس وعامر، وكان لقيط وجيهاً عند الملوك، فحالف النعمان بن المنذر ملك الحيرة، والجون الكلبي ملك هجر)). ومع ذلك كان الموت قدره

المحتوم، فصرعه بنو عبس، ورثته ابنته دخنتوس بثلاث قصائد، بكته في بعضها، ودعت على قبيلة عبس بمصابها وأقسى ما آلمها في مقتل ابيها الغزو والقبيلة لا المجاهرة بالعداوة فأبيها "لقيط" فارس متمرسّ بالسلاح، لا يُنال إلاّ بالكيد والحيلة. ولذلك تفجّعت لاغتياله، ومزّقتها الحسرات حينما تصورت محياه الوسيم معفّراً بالثّرى، دفيناً تحت الصّخور الصلبة:

ألا يا لها الويلات ويلة من بكي لضربي بني عبس لقيطاً وقد مضي

لقد ضربوا وجهاً عليه مصابة ولا تحفل الصّم الجنادل من ثوى [١]

فلو أنّكم كنتم غداة لقيتم لقيطاً ضربتم بالأسنّة والقنا[٢]

وسلكت في مراثيها مسلك الفخر، فجعلت أباها أفضل العرب كهولاً وشباباً وأشرفهم حسباً ونسباً، ونوّهت بمنزلته عند الملوك فقالت:

بَكرً النّعي [٣] بخير خندق كهلاها وشبابها

وبخيرها نسباً إذا عُدّت إلى أنسابها

ورئيسها عند الملو ك وزين يوم خطابها[٤]

ورثاؤها في القصيدتين كلتيهما لا يبلغ رثاء النّساء في البكاء، ولعل ذلك لأنّ الفقيد عظيم من عظماء العرب، فالتنويه بفضله خيرٌ من البكاء على فقده. إنّ رجولة المرثيّ طغت على أنوثة الرّاثية، فأضعفت الحزن أو كادت تلغيه. لكنّ رثاء النّساء في الأعمّ الأغلب غزير الدّموع، حارّ التفجّع. ومن أصدقه ما قالت عزّة بنت مكارم في رثاء ربيعة حامد الظعائن، ولمقتل هذا الفتى رثتهم قصة تروى:

---

[١] – ثوى: مات.

[٢] – الأصفهانيّ: الأغاني، د ط، د ت، دار الثّقافة، ١٦/ ٢١٢.

[٣] – النعيُّ: الناعي هو من يظهر خبر الوفاة ويعلنه.

[٤] – البحاوي وزملائه: أيّام العرب في الجاهليّة، ص ٢١٥.

((خرج نيستته بن حبيب السلمي عزياً، فلغي ظعناً من بني كنانة بالكديد في حفارة ربيعة بن مكرم، فحمل بعض السلميين على ربيعة، فقتله ربيعه، فأصابه منه جرح، فذهب إلى أمّه، فشدّت على جرحه عصابة ثم رجع إلى الظعائن، فلما ألحّ عليه النّزف وأدرك أنّه هالك قال للظّعائن: (سوف أقف دونكنّ لهم على العقبة، فأعتمد على رمحي، فلا يقدمون عليكنّ لمكاني)، فمضت النسوة على قوهن يطبن المأمن، وربيعة دونهنّ يتقاوى متّكئاً على رمح يصارع النزف. ورآه نبيستته بن حبيب فقال أنه لمائل العنق، وما أظنّه إلاّ قد مات)). (١)

وصدق نبيشته، فقد مات ربيعة وأعداؤه منه خائفون، وحمى الظّعائن حّياً وميتاً، فبكته أخته عزة بكاء صادقاً، وودّت لو تستطيع ببكائها تردّه إلى الحياة، وهيهات، وحينما ثابت إلى عقلها، وأدركت أنّ حقيقة الموت لا تجحد استسلمت للقدر المقدور، وعاهدت أخاها على الإخلاص له والبكاء عليه ما عاشت. (٢)

أبكي على هالكٍ أودي فأورثني ... بعد التفرّق حزناً حَرّه باقِ

لو كان يُرجِعُ ميتاً وجدُ ذي رحمٍ ... أَبْقَي أخي سالماً وجدي وإشفاقي

فاذهب فلا يُبْعِدنك اللهُ من رجلٍ ... لقى الّذي كلّ حيٍّ مثلَه لاقيِ

فسوف أبكيك ما ناحت مطوّقةٌ ... وما سَرَيْتُ مع السّاري على ساقِ

أبكي لذكرته عبرى مفّجعة ... ما إن يجفّ له من ذكره ماقيِ(٣)

ففي هذه القصيدة عاهدت الشّاعرة أخاها أنّها سوف تبكيه مادامت على قيد الحياة لا يجف لها مجرى دمع، وسوف تبكيه كلّ ما ناح الحمام أو سرى مع السّاري، فهي تبكيه طول الوقت (٤).

---

١ – أحمد زكي صفوت: جمهرة كتب العرب، ٢/ ١٩٥.

٢ – ابن الأثير الحلبيّ: جوهر الكنز، ط (١)، د ت، د ن، ص ٣٢٥.

٣ – مآقي العين: مجرى الدّمع من العين مما يلي الأنف.

٤ – المرجع السابق، ١/ ٤٠٤.

ونجد أنّ الخنساء[1] قد فاقت غيرها من شواعر العرب في البكاء على صخر في الجاهلية، فإنّ الاسلام أذهب حزنها، وأبدلها أمناً وسكينة. أمّا الشّواعر الجاهليات فقد أقمنَ على التّفجع، فجاء شعرهن حارّ العواطف، مشتعل المواجد، وزادته الحروب القبيلة إضطراماً، إذ أوقدت فيه نيران الحقد والثّأر فاجتاحته حرائق يصعب إخمادها.

وأعنف الحرائق، تلك التي لايتسطاع إخمادُها؛ لأنّ الواتر والموثور شخص واحد، أو يوشكان أن يكوناه، وربما كانت جليلة بنت مرّة هذا الشخص الذي تمتلت فيه الحالة من التناقص المروّع والمتمزّق العنيف بين الثأر والعفو، والحزن والغضب، فقد قتل أخوها جسّاس زوجها كليباً فورثت ثاراً لا يمكنها إدراكه، فلم تجد غير البكاء مسلاة، وراحت اللائمات يلمنها، فلا يزيدها اللوم إلاّ إمعاناً في البكاء؛ لقد قصم المصاب ظهرها، ودمّر حياتها، وقوّض أركانها، وأدناها من الموت، فكيف تسلو وعجزها عن السلوان كعجزها عن الثأر؟

يا ابنة الأقوام إن لمتِ فلا ... تعحلي باللّومِ حتَّى تسألي

إن تكن أختي أمرى لمتِ على ... جزع منها عليّ فافعلي

فعلُ جسّاسٍ . على ضنّي به . ... قاطعٌ ظهري ومُدْنٍ أجلي

يا قتيلاً قوّض الدّهرُ به ... سقفُ بيتيّ جميعاً من علِ [2]

ولك أن تتصوّر هذه المرأة الممزّقة بين الحزن والغضب، تتقلّب على جمر يكتنفها من كلّ جانب. وأقلّ هذه النار ضراوة حزنها على زوجها، وأكثرها ضراوة تلك الّتي تعتمل في قلبها ولا تشتعل. إنّ تفكيرها في الثّأر من أخيها ليشعل حاضرها ومستقبلها فيروّعها يصوّرُ ما تفكر فيه فتقلع، وتحسّ أنّ إطفاءها نار كليب بدم جساس سيضاعف حزنها، فتغدو يّمّاً ثكلي، وتغدو الفضيحة فجيعتين:

مسّني فقدُ كليبٍ بِلَظًى ... من ورائي مستقبلي [3]

---

[1] – الخنساء شاعرة بني سليم، ط (٢)، ص ١٢٣.

[2] – قوّض: هدم.

[3] – اللظي: النار لهيبها.

يشتفي المدرك بالثّأر وفي درك ثأري تكل المثكل [١]

وتودّ لو أنّها القتيل، وأنّ عروقها تتقطّع فتمزق دمها تستريح من هذا الصّراع الضّاري:

ليتهُ كان دمي فاحتلِبوا دراً[٢] منه دمي من أكحلي[٣]

إنّني قاتلةٌ مقتولةٌ ولعلّ الله أن يرتاح لي

أمّا رثاء الرّجال للرّجال[٤] فقد كان مفتقراً للبكاء، حريصاً على الاشادة بالماثر، صادقاً في مزجة الحزن بالفخر لأن الشاعر الجاهليّ كان واقعياً في الرثاء كما كان واقعياً في المدح، فهو لم يكن يختلق فضائل لَمْ تُؤْثَرُ عن الفقيد، ولم يكن يخلع على الصعلوك جلال الملوك، بل كان يصف الميّت بما فيه، ولا يعينه بعد ذلك أن تكون الخلال التي يذكرها حميده عند قوم ذميمة عند آخرين. كان الشنفري صعلوكاً أىّ صعلوك، فيه الطيب والحنين، قليل الأذى، مصون الشرف، أوتي العزيمة القادرة على قهر الزمان وتذليل الصعاب بقوسه السّديدة، وسيفه الرهيف. وكان . على نفوره من النّاس – برّاً بأصحابه، يرصد لهم وهو رابض في مربضه على قمّة الجبل منافذ الشعاب، وأتاح بذلك لهم سبل الغزو والأخذ بالثّأر. وهذه الخصال جعلته رائداً من روّادهم، وجعلت رحيله عن الدّنيا خطباً لا يدرِك فداحته إلاّ الصّعلوك مثله كتأبط شرّاً الّذي بكاه، ونوّه بشجاعته وسرعته وصبره واحتماله الشّدائد، فقال:

قضى نحبه مستكثراً من جميلِهِ مقلاً من الفحشاء والعرض وافر [٥]

يخرج عن غمّة الروح عزمه وصفراء مرتان وأبيض ياسر [٦]

ومرقية شماء أقعين فوقها ليغنم عاز أو ليدرك شاعر [٧]

---

[١] – الثّكل: فقدان الحبيب.

[٢] – الدّر: درة وهي ما سال من اللبن أو الدّم.

[٣] – الأكحل: عرق في اليد.

[٤] – محمد جابر عبد العال: الخنساء شاعرة بني سليم.

[٥] – وافر: تام غير مذموم.

[٦] – الضمة: الكرب: الروّح: الفرع، صفراء مرتان: قرس مصونة، البيض ياثر: سيف قاطع.

[٧] – المرقبة: كل عال مشرف، شماء: مرتفعة، أقعى: الإقعاء ضرب من الجلوس.

فلا يبعدنّ الشنفري وسلاحه ال جديد وشد خطوه متواتر [١]

وهذه الواقعية[٢] تظهر في رثاء الملوك ظهورها في رثاء الصعاليك؛ لأنّها سمة من سمات الشّعر الجاهليّ كلّه. فحينما رثى أمرؤ القيس أباه لم يكن يبكيه أو يستبكي النّاس عليه؛ لأنّ مكانته تجلّ عن الدّموع، بل فاخر به وبمكانته، وكذّب الخبر الّذي بلغه عن مقتله؛ إذ لم يدر في خلده قطّ أن يجرؤ بنو أسدٍ على قتلِ سيّدهم حجر. وحينما تبيّن وجه الحق ثقل عليه الرّزء، وراح بياض بموضوع أبيه من الملك، ويصور القبائل العربية من ربيعة وتميم وأتباعهما خدماً له وموالى تسعى إلى مرضاته وتتقوّت من فتاته:

أرقن لبرق بليل أهل يضي سناه بأعلى الجبل

أتاني حديث فكذبته بأمر تزعزع منه القلل [٣]

يقتل بنى أسد ربّهم الأُكلّ شيء سواه حِلل [٤]

فأين ربيعة عن ربّها وأين تميم وأين الحول

ألا يحضرون لدى بابه كما يحضرن اذا ما أكل

على أنّ الرثاء الجاهليّ وإن كان واقعيّاً، إلاّ أنّه لم ينج . على واقعيّته . من المبالغات التي فشت في شعر المتأخرين. لكنّها في الشعر الجاهلي أتت تعبيراً عن الدهشة التي تصحب موت العظيم، وفي الشّعر المتأخّر أتت عوضاً عن الصدق في الإحساس. وهذه المبالغات لا تشغل من القصيدة الجاهلية غير بيت أو بيتين، يخرج فيها الشاعر عن المألوف، فمتى أحسّ أنه جاوز الحدّ ارتدّ، والتزم الواقعية المألوفة في الرّثاء.[٥] وأوضح[٦] دليل على ما نذهب إليه قصيدة رثى فيها أوس بن حجر قريباً لقلبه، سيّداً من سادة بنى أسد، وشاعراً من شعرائها، هو فضالة

---

[١] – لا يبدعن: لا نحي عن الخير: الحديد المرهف: القاطع الشفرة. متوتر: متتابع

[٢] – محمد جابر عبد العال: الخنساء شاعرة بنى سليم، ٢/ ٢٨.

[٣] – القلل: قُلة وهي رأس الجبل.

[٤] – جلل: صغير حقير.

[٥] – محمد جابر عبد العال: الخنساء شاعرة بنى سليم ، ٢/ ٣٥.

[٦] – ديوان أوس بن حجر. وابن رشيق القيروانيّ: العمدة، ٢/ ١٢٥.

بن كلدة، فطلب من الشمس أن تنكسف، ومن القمر أن ينخسف ومن النجوم أن تنطفي حزناً على فضالة. ثم أدرك أنّ مطلبه مستحيل، فتحسر على الفضائل التي أنطوت بانطوائه، كإقالة العتر، وجبر المكسور، والشجاعة في الملمّات.

ألم تكشف الشمس والبدر والـ كواكب للجيل الواجب [١]

لفقد فضالة لا تستوى ال فقود ولا خلة الذاهب [٢]

ألهفاً على حسن أخلاقه على الجابر العظم والحارب [٣]

وربّما كان الشّعراء الذين ربطتهم بالأمراء صلات المعايش أميل إلى هذا النّمط من الرثاء؛ فهم . لحرصهم على التّعظيم . قد تعوّدوا المبالغة في المدح، ثمّ نقلوا المبالغة من إطار المدح إلى إطار الرّثاء، ومن رثاء الأمراء إلى رثاء الأصدقاء وذوي القربي.

الرثاء القبلي:[٤]

إنّ ارتباط الشاعر بقبيلته كثيراً ما كان ينهض به مختاراً في السّلم والحرب، فهو في السّلم لسانها النّاطق بالمفاخر، وفي الحرب شعلتها التي تضرم الغضب في النّفوس، وبعد الحرب نادبها الباكي على القتلي. ولمّا كانت حياة العرب في الجاهليّة حروباً موصولة بحروب، فقد كثر في شعرهم الرّثاء، واتّخذ بعضه طابع الرّثاء القبليّ العامّ، وبرز فيه الشعراء بروز القادة يقودون الأبطال إلى سوح المعارك بالحماسة، ثمّ يودّعونهم . إذا قُتِلُوا . بالتّأبين.

ولذلك شاع من هذا الرثاء والبكاء على أبطال القبيلة، والقبول بالقدر المقدور، لأنّ القبائل كلّها أو جلّها تلتقي في ملتقي واحد، وهو النّزوع الدائم إلى القتال، والرحيل عن المنازل إلى المقابر في موكب لا ينقطع.

ومن هنا نجد في رثاء أمّ صريع الكندية في رثاء قومها الذين قتلوا في وقعة جيشان وهي تقول:

---

[١] – الواجب: الساقط.

[٢] – المفقود: المصائب، الخلة: الخلل الذي قد تركه وكان مدوداً به. جابر العظيم: المغني بعد الفقر

[٣] – المحارب: المحارب الذي يسلب الناس.

[٤] – بشير يموت: شاعرات العرب في الجاهليّة والإسلام، تحقيق وتنقيح عبد القادر محمد، ط (١)، د ت، دن، ص ١٤٨.

سَقَى مُسْتَهلّ الغَيْثِ أَحْدَاثَ فِتْيَةٍ بِجَشْآن وَلَّيْنَا نُحُوْرَهُمُ الدِّمَا [١]
صَلَوا مَعْمَعانَ الحَرْبِ حَتَّى تَحَرَّمُوا مَقَاحِيمَ أسهابِ الكُماةِ التقحُّما [٢]
هَوَتْ أُمُّهُم مَاذَا بِهِم يَوْمَ صُرِّعُوا بِجَيْشَانِ مِنْ أَسْبَابِ مَجْدٍ تَصَرّما [٣]
ولم انهمّرت من عليهم سحابةٌ إِذَا بَرَقَتْ بِالمَوْتِ أَمْطَرَتِ الدِّمَا
أَبَوا أَنْ يَفِرُّوا وَالقَنَا فِي نُحُورِهِمْ وَلَمْ يَبْتَغُوا مِنْ رَهَبْةَ المَوْتِ سُلّما[٤]
وَلَوْ أَنَّهُم فَرُّوا لَكَانُوا أَعِزَّةً وَلَكِنْ رَأَوا صَبْراً عَلَى المَوْتِ أكْرَما

نجد الشّاعرة ترثي قومها وهي تبكيهم، وتصفُ قومها بالشّجاعة فقد كانوا صابرين على الحرب حتى قُتِلُوا، ولم تزيدهم نار الحربِ إلاّ ثباتاً، حتّى إذا كانت القنا في نحورهم لم يطلبوا النّجدة والمساعدة صبراً، وشجاعة منهم.

وأيضاً نجد أميمة بنت عبد شمس[٥] قد حزنت على من قُتِلَ مِنْ قومها في يوم الحيرة، لكنّها قمعت الحزت بالتجلّد، وانتقلت من النواح إلى إقناع السامع بأنّ القتلي جديرون منها بالدموع الغزيرة، فهم ركنها الذي تداعي، وشرفها الذي تعتز به وقلعتها التي تحمي بها.

ألا يا عَيْنُ فَابْكِيهم بِدَمْعٍ مِنْكِ مُسْتَغْرِبْ[٦]
فَإن أبكي فَهُمْ عِزِّي وهم رُكْنِي وَهُمْ مَنْكَبْ[٧]
وَهُمْ أَصْلِي وَهُمْ فَرْعِي وَهُمْ نَسَبِي إِذَا أُنْسَبْ
وهم مجدي وهم شرفي وهم حصني اذا ارهبْ

---

[١] – الأحداث: القبور.

[٢] – تحرم: قتلوا – نحروهم: رقابهم

[٣] – تضرم: انقضى. الكماة: المقاتلون المسلّحون.

[٤] – القنا: الرماح. ابتقوا منه: طلبوا النجاة

[٥] – ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق حسين نصّار، ص ٥٠–٥١.

[٦] – مستقرب: كثير لا ينقطع.

[٧] – الركن: الملجأ. منكب: عون.

فهنا تريدُ الشاعرة أن تقول: كيف لاتبكي وترثي قومها الّذين ماتوا، وفيهم جميع الفضائل والخصال السمحة من صدق وبلاغة وبطولة وهم سندها وهم اصلها وهم نسبها وشرفها وهم فرعها وحصنها الذي تحتمي به.

وتقول أيضاً:

فَكَمْ مِنْ قَائِلٍ مِنْهُم إِذَا مَا قَالَ لَمْ يَكْذِبْ

وَكَمْ مِنْ نَاطِقٍ فِيهِم خَطِيبٌ مُصْقِعٌ مُعْرِبْ[1]

وكم من فارسٍ فيهم كميّ مُعلم مُجرِب [2]

الشاعرة تصف قومها بأنهم لا يكذبون اذا نطقوا وهم فرسان متمرسين على الحرب والقتال.

ومن قصائد المفضّل يصف خيام النساء الباكيات المعولات، على قومهم:

فابكّينا نساءهم وابكوْا نساءً مايسوغُ لهن ريقُ [3]

يجاوبنا النيّاح بكلّ فجر فقد صحلت من النوح الحلوقُ[4]

يصف الشّاعر النساء في الخيام الباكيات المعولات، ويصغى إلى النّواح، فإذا الأصوات تتجاوب، وإذا البكاء واحد، وإذا حناجر الفرقين مبحوحة قد خنقتها الغصص.

---

[1] – يحيى الجبوريّ: الشعر الجاهلي، ص ١٦٣

[2] – عفيف عبد الرحمن: الشعر وأيّام العرب في العصر الجاهليّ، ط٢، ص ١٩٥.

[3] – ما يسوغ لهن ريق: غصصن حزناً وألماً فترد الاخرى بكاءها ببكاء مثله.

[4] – النّياح: النّواح والبكاء.

المبحث الخامس

تطوُّر أساليب الرّثاء

لقد تطوّرت أساليب الرّثاء وأصبحت له أساليب شتّى، فمن ذلك صور العزاء بشتّى[1] أساليبه من صبرٍ وغيره، ثمّ اقتصر استعماله في الصّبر على كارثة الموت، وأن يرضى من فقد عزيزاً بما فاجأه به القدر، فتلك سنّة الكون، نولد، ونمضي في الحياة سعداء أو أشقياء ثم نموت، فكلّ النّاس يرحلون، والموت غايتهم الّتي ينتهون إليها، ولا مفر لهم منها ولا خلاص، وإذاً فليقبلوا الحياة كما هي، يقبلوها على أنها دار زوال وانتقال وليست دار بقاء واستمرار، فكلٌّ يلعب دوره ويمضي ولا شيء يدوم: يقبل النّهار المشرق ثم يدبر ليأتي الليل المظلم، ويتعقّد السّحاب وتبكي السماء ثم يصحو الجو ويصفو، ويقف الانسان أمام هذا التغيّر والتقلّب مستسلماً، لا يملك من أمره ولا من حياته شيئاً، فسرعان ما يعصف به الموت، فإذا هو محمول على آلة حدباء.

إنّه عاجز، ليس له إلاّ أن يذعن إذعاناً خالصاً، إذعاناً لا تشوبه مقاومة، وهل من أمل في مقاومة، وهو يرى نفسه كل يوم مشدوداً في خيوط قوية بيدٍ قاهرة تدبر شئونه، وقد تنهي به إلى الإخفاق في أمله بل في روحه ووجوده، فإذا هو لا يستطيع أن يستأنف نشاطاً ولا يلقى فوزاً وانتصاراً.

وهؤلاء الذين نحبهم ونؤثرهم على أنفسنا من آباء وأبناء وإخوة ماذا نستطيع أن نقدم لهم حين تحين ساعتهم؟

إنّنا مهما فكرنا وقدّرنا لن ندفع عنهم صيحة الموت البغيضة ونحن نذرف الدموع لفراقهم مدرراً، ولكن ماذ تفيد الدموع؟ وماذا يفيد الأسى والحزن! لا خيار إذن غير أن نتحمّل المكروه، ونتعزى ونصبر على ما نزل بنا.

---

[1] – الخنساء: شاعرة بنى سليم، ط٢، ص ١٨٢.

وكان شاعر الجاهلية القديم يفكّر في هذا كله، فكان يحزن ويبكي ويلتاع ويعبّر عن ذلك تعبيراً قويّاً عن شعره، ثمّ يعود إلى نفسه فيرى أنَّ كلَّ ما يصفه لا يغنيه شيئاً؛ لأنّ المحنة في حقيتها محنة كيبرة، محنة الناس جميعاً يُمتحنون بها صباحاً ومساء، ولا يستطيعون لها ردّاً ولا دفعاً، فالناس كلّهم يموتون، والنّاس كلّهم يُصابون بحميم أو قريب. ولعلّ ذلك ما جعل الخنساء تقول:

وَلَولا كَثرة الباكين حَولي عَلِى إِخْوانِهِم لَقَتَلْتُ نَفْسي
وَما يَبْكُون مِثْلَ أَخي وَلَكِن أُعَزِّي النَّفسَ عَنْهُ بالتّأسّي

ومن هذا الرّثاء نجد الخنساء تقول: لولا إخواني الكثيرون الّذين يبكون على موتاهم لقتلتُ نفسي حُزناً على صخر. ولكنّها وجدت من يشاطرها الحزن، ويبكي معها. فمن هنا نلاحظ أنّ الحزن والبكاء موجودٌ دائماً، ولكن يجب أن يكون الإنسانُ متجلّداً صابراً على المصيبة التي تلم به وألاّ يستشعر خذلاناً ولا ضعفاً.

ونجد كثيراً من الجاهليّين لديهم نزعة الاستسلام للقدر، فالموت كأس يذوقها الجميع، لم يسلم منها أحد لا ملك ولا سوقه، وكم من دولة زالت وجماعة بادت، فهناك قوم نوح وعاد وثمود، وهناك كسرى وسابور ملكي الفرس، وملوك الروم المتلفين وملوك الحيرة. ولعديّ بن العبّاديّ شعر كثير في ذلك، فنراه يقول في إحدى قصائده:

أينَ أَهْلُ الدِّيارِ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ثُمَّ عاد مِنْ بَعْدِها وَثَمُودُ

ويقول:

أَيْنَ كِسرى الملوكِ أنو شِرْ وانِ أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابورُ
وبنو الأَصْغَرِ الكِرامِ مُلوكُ الـ رُّوم لَمْ يَبْقَ مِنْهُمو مَذْكورُ

وكان للجاهليّين من هذه الافكار ما يشبهها للتّعزّى عن الموت، وبيان أنّ داعيه لا ينقطع، وأنّ كلّ إنسانٍ إلى ربّه يرجع.

ولمّا عمت أضواء الإسلام النفوس، أخذت أساليب جديدة تظهرُ في العزاء تقوم على التّسليم لله والرّضى بقضائه والصّبر على امتحانه احتساباً وطلباً للاجر والمثوبة من عنده، واقتداءً بقوله سبحانه وتعالى: (وبشر الصّابرين الذين إذا أصابتهم مصيبةُ قالوا إنا لله وانا إليه راجعَونَ أوُلئك عليهم صلواتٌ من ربّهم وأولئك هم المهتدون)[1] .

ومن تطوّر أساليب العزاء في الأهل كانت العادة في الجاهلية أن يعزّى الشاعر إزاء من يفقد من أهله واشراف قبيلته، فعزاؤه يوجّه قبل كل شيء لنفسه ثم لمن حوله. ولمّا جاء الإسلام ونشأت طبقات الخلفاء والولاة، واخذت تتألف حول كل خليفة وأمير أو حاكم كبير طبقةٌ من الشعراء تقف نفسها على مديحه وتسليته إن اراد التسلية راينا هذ الطبقة تعمد حين تلم به مصيبة إلى تعزيته فيها.[2] ودار ذلك أكثر ما دار حول فقد الأبناء وفلذات الأكباد، فكان الشّاعر إذا مات ابنٌ لخليفةٍ يبادر إلى تخفيف الحزن بأبيات تحدّ من لوعته وفجيعته، بما يذكر من أنّ الموت حقٌّ واجبٌ على النّاس، وكلّ نفس ذائقة الموت، وكلّ إنسان راحل إلى دار الآخرة نحو ما قالت امرأة أعرابيّة ترثي ولدها عمراً:

يا عَمْرو مَا لِي عَنْك مِنْ صَبْرٍ	يا عمرو وا أَسَفِي عَلَى عَمْرو
لله درُّكَ يا عَمْرو وأيّ فتًى	كففت يَومَ وُضِعت فِي القبرِ
حثّوا التُّرابَ عَلَى مَفَارِقِهِ	وعلى عضَادَة وجهه النّضرِ
ثبت الجنان به ويقدمها	فلج يقلب مقتلي صغر
هرباً بِهِ الموتُ يَطْلُبُه	حيثُ انتويتُ به ولا ادري
وَلَوْ شاءَ رَبِّي كان مَتَّعَنِي	بأبني وشدّ بأزره أزري
هَذا سَبِيلُ النَّاسِ كُلِّهِمِ	لا بدَّ سالكها على سفرِ

تصف هذه الأعرابيّة ابنها وهي تبكي وتتأسّف عليه وهى لا تدري إلاّ أنَّ الموت قد أصاب ابنها ولكنها بالرّغم من ذلك تسّلم بأنّ هذا الدّرب كلّ حيّ يسير عليه ويسافر به[3].

---

[1] – سورة البقرة الآية (٥٥ – ٥٧)

[2] – شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام تإلف بشير يموت تح عبد القادر محمد مايو ط ١ ص ١٦٠

[3] – بشير يموت: شاعرات العرب الجاهلية والاسلام، ص ١٦١.

وهناك ضربٌ ثالثٌ يُعَدُّ من تطوّر الرّثاء، وهو أن يتّجه الفرد إلى التّفكير في رحلة الحياة، ومصير النّاس، وحتميّة الأقدار، ونزول البلاء، وضعف الإنسان أمام نوازل الدّهر ومصائب الزّمان، فيلتمس في ذلك السّلوى والصّبر والرّضى بما حلّ به ومن يقرأ الشّعر الجاهلي يعجب من كثرة الشّواعر اللّواتي أنشدن أشعاراً. وقد بلغ من اشتهار المرأة بالرّثاء وافتخارها بفضائل قتلاها ومكانتهم أن صارت تفاخر غيرها بعظم مصيبتها والتفاخر بقتلاها كما فعلت الخنساء حين فاخرت هند بنت عتبة وعاظمتها بأنّها أكثر مصيبة؛ فقد فاخرتها بابنها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية. وقد قالت في ذلك: [1]

أُبَكِّي أبي عَمراً بعينٍ غزيرةٍ وَصِنوَيَّ قليلٍ إذا نامَ الخَلِيُّ هجودُها
والله لا أنسَى مُعاويةَ الّذي له من سَراةِ الحَرّتَينِ وُفُودُها
وَصَخراً ومن ذا مثلُ صخرٍ إذا غدا بساحتِهِ الأبطالُ قزمٌ يَقودُها

وفاخرتها هند بأبيها عتبة، وعمّها شيبة، وأخيها الوليد؛ فهي أعظم مصيبة حيث تقول:[2]

أُبَكِّي عميدَ الأبطحينِ كِليهما ومانِعَها من كلِّ باغٍ يُرِيدُها
أَبِي عُتبَةُ الخيراتِ ويحكِ فاعلمي وَشَيْبَةُ والحامي الذِّمارَ وليدُها
أولئِكَ آلُ المجدِ من آلِ غالِبٍ وفي العِزِّ منها حين يُنْمَى عديدُها

ومن التّطورات التي حدثت بعد ظهور الإسلام تغيُّر النظرة إلى الميت إذ أصبح الناس مسلمين ملتزمين بالإسلام وبالدين الجديد، مؤمنين بالقضاء والقدر ومصدّقين لآيات الذّكر الحكيم وبهذا فتح الإسلام آفاقا جديدة في هذا المجال وقد طرح أفكاراً لكثير من المعتقدات الجاهلية وخاصة وضوح المصير لدى المسلم وتأثّر الشعراء بهذا كله وإذدياد إيمانهم ويرجع ذلك إلى الموروث الديني وهو المصدر الإسلاميّ، وقد استحدث بعض الشعراء ضروباً جديدة وهي الإيمان بالآخرة وما يتّصل بالثواب والعقاب وما أعدّه الله تعالى للمسلمين من النعيم والثواب.

---

[1] – شرح ديوان الخنساء ص ٥٢ – ١٥٣.

[2] – الاغاني، ٤/ ٢١٢.

قال تعالى: (إنّ الذين أمنوا وعملوا الصالحات كانتْ لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا)[1].

كما ظهرت أيضاً قيم دينية جديدة تتصل بالاستشهاد في سبيل الله من حيث أجرها وشفاعة الشهيد ودرجته. وكلّ ذلك أدّى إلى الاعتقاد بما يُسمّى (الاحتساب). ونلمس ذلك في قول الأعرابيّة التي رثت ابنها قائلة:

فإن احتَسِب أوجر وإنْ أبكه أكن كَباكِيَةٍ لَمْ يُحْيِ مَيتاً بكاؤها

فنجد فكرة الاحتساب ورسوخ العقيدة الإسلاميّة الصّحيحة نجدها عند الخنساء الّتي بكت إخوانها حتى ابيضّت عيناها، ورثتهما بأجمل الأشعار وأجودها. ومن هنا أثبتت فكرة الجهاد والاستشهاد في سبيل الله.

هذا النّوع يؤكّد روح الإسلام وعمق المعانى الإسلاميّة والصّبر والجلد بالنسبة لشاعر الرّثاء في سبيل الإسلام، ويبيّن لنا نوعاً جديداً من الرّثاء في الإسلام ممّا يردّده الشّعراء من مصطلحات إسلاميّة جديدة في غمرة رثائهم، مثل صلاة الله وسلامه على المتوفّي أو صلاة الملائكة والمؤمنين وسلامهم عليه، وقد انتشرت هذه الظّاهرة في بداية عصر الرّسالة، وتفتّح لنا هذا الاتّجاه في رثاء الشّعراء لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أكثر رثاء كقول صفية بنت عبد المطّلب:

أفاطم صلّى الله ربّ محمّدٍ على حدث أمسى بطيبة ثاويا

نلاحظ ممّا تقدّم أنّ الرّثاء تطوّرت أساليبه فيما ورد من معانٍ إسلاميّة جديدة لم يكن يعرفها الشعراء العرب من قبل، وقد ظهرت معانى الإسلام الجديدة وروح الإسلام وتوجيهاته السّمحة في شعر الرّثاء، فوصلت إلينا مراثي نحسّ فيها روح الإسلام وسماحته والرّضى والصّبر والطمأنينة التي أشاعها الإسلام في نفوس الشّعراء.

[1] – سورة الكهف: الاية (١٢٧ – ١٠٨)

الفصل الثّاني
رثاء النّساء في العصر الجاهليّ

المبحث الأوّل: الرّثاء عند المرأة في الشعر الجاهليّ.

المبحث الثّاني: التناحر القبلي وأثره في تطور فن الرّثاء.

المبحث الثّالث: طبقات المرثيّين.

المبحث الرّابع: فضائل المرثيّين.

المبحث الخامس: خصائص فنّ الرّثاء عند المرأة الجاهليّة.

الرّثاء كأحد أغراض الشّعر وجد حيزاً كبيراً في التّراث الشعري عند العرب على مختلف أزمنته وعصوره، وقد قيل أنّه لم يقل في شيء قط كما قيل لأنّ الناس لا ينفكون من المصائب، ومن لم يثكل ثكله أخوه ومن لم يعدم نفيساً كان هو المعدوم دون النفيس، وحق الناس الصبر على النوائب إذا كانت الدنيا دار فراق ودار بوار لا دار استواء على فراق

المألوف حرقه لا تدفع ولوعة لا ترد، وإنّما يتفاضل الناس بصحة الفكر وحسن العزاء والرغبة في الآخرة وجميل الذكر.[١]

وعلى الرّغم من أنّ التعبير عن الحزن قديم قدم الإنسان نفسه إلاّ أنّ الصورة البدائية له ليست معروفة تماماً، شأنها شأن فنون القول الأخرى، إلاّ أنّ بعضهم يرى أن القوالب معروفة، ولهذا غلب تعهده بعد ذلك على الناس[٢]

أو لعلّه كان في أوله لا يتعدى عن كونه تعاويذ وكلمات ينظمها الكهان على أرواح الموتى ثم تطور[٣] وقد كانت هذه التعاويذ تقرأ على روح الميت نتيجة للفهم الذي كان عالقاً بأذهان الناس في ذلك الوقت، فكان الغرض من المرثية أن تطفي غضب المقتول وتنهاه أن يرجع إلى الحياة فيلحق الأضرار بالأحياء الباقين.[٤]

وبعضهم يرى أنّ الرّثاء كان في بداياته يرجع إلى نداءات السجع باقوال قصيرة منمقة مكونه من سطور قليلة بل كان رثاء النساء في العصر الجاهلي يمتاز بالصدق والقرب من الواقع.

---

[١] – المبرّد: الكامل في اللغة والأدب، د ط، د ت، دار المعارف، بيروت، ص ١٧.

[٢] – بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، نقله إلى للعربية د. عبد الحليم النجار، ط ٢، د ت، دار المعارف، مصر، ١/ ١٦٤.

[٣] – المرجع السابق، ١/ ١٦٤.

[٤] – المرجع نفسه، ١/ ٤٧.

المبحث الأول

مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي

إنّ اتخاذ الشعر مصدرًا من تصوير المرأة لا يقل في الواقع قيمة ودلالة وصدقاً عن اتّخاذ أيّ مصدر تاريخي لتصوير حادثة تاريخية في أبحاث المؤرخين وغيرهم من المشتغلين بالثقافات النظرية ، ويؤيد ما ذهبنا إليه التّراث الذي خلّفه لنا العصر الجاهليّ في صوره المختلفة، قصص وأخبار ووقائع ومظاهر أخرى من الحياة، كل هذا يعزز واقعيّة الصورة التي رسمها الشعر للمرأة الجاهلية.

إنّ للمرأة دور ظاهر في الحياة الجاهلية وهاماً جداً ولهذا كنا نسمع في كل مناسبة اعترافاً شعرياً من الرجل لها بفضلها ومنزلتها السامية إذ كانت هي أهم ما في حياته ممّا يستحق العناية ويستوجب التضحية، فهي التي حارب من أجلها وشجع ليرضيها وتوجه إلىها بكريم الصفات وجليل الفعال. وللمنزلة الممتازة لم يجد الأشراف والملوك بأساً من التكنّي بها والانتساب إليها فقد نسب المناذرة إلى أممهم ما السماء وهي مادية بنت عوف ملكة العراق التى قيل عنها إنّ جلال الجمال وجمال الخلال قد انتهيا إليها وأن أبناءها المناذرة قد ورثوا عنها الشرف ومضاء الذكاء، وهكذا نسب عمرو بن هند إلى أمّه من غير أن يرى في ذلك عيباً ومنقصة[1].

ومن الدلائل على قدرها في النفوس أنّها كانت تجير الهارب وتحميه، فقد رُوِي أن جماعة بن عوف بن محلم الشباني أجاره مرون بن زنباع العبسي وكذلك فكيهة بنت قادة ابن مسنوء أحد بني قيس بن ثعلبة أجارت السليك بن السلكة السعدي، وأم جميل الدوسية أجارت ابن ضرار بن الخطاب.

وروى عن ابن مسعود بن مالك الثقفي أنه جعل خباء زوجته سبيعة بنت عبد شمس حرماً في حرب التجار بحيث آمن فيه من دخله من أعدائه من قريش، وأصبح سالماً. ويعتقد أن هذه القبة ترجع إلى أصلها إلى تقليد ابني إذ كانوا يرفعون لهم القبيلة يسمونها (قبة الإعاذة) يضربها الأشراف ويتحفظون لها بالصفة الدينية. ومن أهمّ الآثار الدالّة على سموّ

[1] – محمد بن حسين: المخيمر، ص ٣٣.

مكانتها في الجاهليّة أنّ حروباً كثيرة قد حدثت بسببها، وأنّها كانت تقوّي الصلات بين القبائل.

فإن النعمان بن المنذر لمّا غضب عليه كسرى أودع أسلحته وأهله عند هاني ابن مسعود الشباني ثم رحل إلى طيء لصهره فيهم فطمع في مساعدتهم[١] وليس أدلّ على عظيم منزلتها ان تعلى عرش الملك فقد روي عن كثيرات منهن صرن ملكات مطاعات في الملك والرياسة منهن (زنوبيا) ملكة تدمر التي لقبها المعاصرون بـ(جانداراك الصحراء) والتي قال عنها المستشرق وارنكتون أنها من أصل عربي من بني السميدع ولهذا أطاعتها القبائل السورية وبلغت من العزة درجة ضرب بها المثل فقالت العرب (أعز من الزباء).

وقد صور القرآن عظمة الملكة بلقيس وسياستها الدمقراطية وإدارتها بالشورى والتعقل والحزم [٢]. فقد (أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم)[٣]. ولمّا طلبها سليمان قالت: (يأيها الملأ أفتوني في أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتّى تشتهدون)[٤].

وقد أبدت الأخبار المتواترة أن منهن من عرفت بأصالة الرأي وحسن النظر في الأمور فقد روي عن عمرة بنت عامر بن الظرب أنها كانت تساعد أباها في الغُثيا عندما تقدم به السن وتستشاف الأمور.[٥] وقيل أنها كانت تقرع العصا إذا رأته سها في حكمه. ومن الإشارة إلى هذا المعنى قول الشاعر:

لدى الحكم قبل اليوم ما تقرع العصا وما علّم الإنسان إلاّ ليعلما[٦]

وقد نبغ أكثر من واحدة منهن في الحروب السياسية والأدب والشعر[٧] والتجارة كجليلة أخت جساس التي يلفت النظر شعرها الرائع المؤثر، وكأم جندب التي احتكم إليها

---

١ – الاغاني، ٢/ ١٣٢، ٢٩– ٣١ .

٢ – سورة النّمل: الآية (٢٢).

٣ – سورة النمل الآية (٢٣).

٤ – سورة النمل، الآية (٣٢).

٥ – R- smith: knish ip & narriage / p 125 - 295

٦ – الأغاني، ٤/ ١٢٩. وروي: (لذي الحكم).

٧ – Bevanjames: women in lom

أمير الشعراء في عهدها أمرؤ القيس وعلقم، وكالخنساء بنت عمرو الّتي امتازت بالرثاء فأبدعت ومثل هند زوجة أبي سفيان وكانت ترسل بتجارتها إلى قبيلة كلب في الشّام[1]، ويروي الرّواة أنه لمّا سقط لواء قريش في معركة أحد تناولته بنت علقمة الحارثية[2].

نجد للمرأة في الجاهلية مكانة مرموقة، ومنزلة عالية لا تداني، والدليل على هذا ما توارثناه من شعر الشعراء ونثر الأدباء الذي يتغني بالمرأة ولا يفتأ عن ذكرها والإشادة في غدوّه ورواحه ومصحبه، ذكرها بصاحبة حيث ما حل وأين ما ذهب ونداه في أشدّ ويلات الحرب، ومنازلة الأعداء يذكرها ولا ينساها:

ولقد ذكرتك والرّماحُ نواهلٌ منّي وبيضُ الهندِ تقطرُ من دمي
فوددتُ تقبيلَ الرِّماحِ لأنّها لمعت كبارق ثغرك المتبسّم

وممّا يدلّ على عظيم مكانتها ومنزلتها دقّة تسنمت عرش المملكة.

وإنّ المرأة في فجر التاريخ حتى اليوم قد برهنت على ذكاء عظيم ودقة وإحساس تثير الإعجاب، ولقد ظهرت كما أسلفنا في ميدين الفكر شاعرة فياضة بالوحي الإلهي وناثرة قديرة على إيقاظ أنبل عواطفنا واستطاعت أن تكون رئيسة وحاكمة وقائدة جيوش وسياسية محنكة. كل شيء قد برزت فيه وساوت فيه الرجل وفاقته أحيانا وتركت للناس فيه أحدوثة باقية وذكراً خالداً[3].

ويروي التّاريخ أنّ النساء قد اشتركن فعلاً في حومة الوغى بعزيمة نادرة وشجاعة فائقة في بعض الغزوات. كغزوة أحد يلقين بفلزات أكبادهن في المعركة وخير شاهد على ذلك الخنساء فقد ضحت بأولادها الأربعة في سبيل نصرة الإسلام.

وممّا سبق لها أنه نشطت نشاطاً كبيراً في نشر رسالة الإسلام السمحاء وأحكام الدين ورفع منار السنة الغراء، فروت الحديث عن النبي صلّى اله عليه وسلّم كالسيّدة عائشة رضي الله عنها فلقد كانت عاملاً كبيراً ذا تاثير عميق في نشر تعاليم الرّسول صلّى الله عليه

---

[1] – مكتبة دار المعارف الاسلامية

[2] – جورجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ١/ ٣٢١.

[3] – محمد بدر معبدي: النّساء في الجاهلية والإسلام، ص ١٦٠.

وسلّم، والثّقافي في إعلاء كلمة الله لتخفق رايته على الخافقين. وأمر خطير كهذا يتطلب استعداداً خطابياً وأدبياً، يؤهلّهن لاقتحام هذا الميدان الجديد.

وقد كان في المجتمع الجاهلي نوعان من النساء إماء وحرّات. وكانت الإماء كثيرات وكان منهن عاهرات يتخذن الأخدان والقيان يضربن على المزامير وغيرها في حوانيت الخمارين، وقد يريعن الإبل والأغنام وكن في منزلة دانية، وكانت العرب إذا استولدوهن لم ينسبوا إلى أنفسهم أولادهن إلاّ إذا أظهروا بطولة تشرّفهم على نحو ما هو معروف عن عنتره بن شدّاد، فإنّ أباه لم يلحقه بنسبه إلاّ بعد أن أثبت شجاعة فائقة ردت إليه اعتباره. وكانت الحرّة تقوم بطهي الطعام ونسج الثياب وإصلاح الجباء، إلا إذا كانت من الشريفات المخدومات فإنّه كان يقوم لها على هذه الأعمال بعض الجواري[١].

وتدلّ دلائل كثيرة على أن بنات الأشراف والسادة كان لهن منزلة سامية كن يخترن أزواجهن، ويتركنهم إذا لم يحسنوا معاملتهن[٢] وبلغ بعض منزلة شريفاتهن أنهنّ كن يحمين من يستجير بهن ويرددن إليه حريته إذا استشفع بهن على نحو ما ردت فكيهة إلى السليك بن السلكة حريته حين وقع أسيرا في يد عشيرتها من بني عوار[٣] وكانوا يعدونها جزء لا يتجزأ من عرضهم، ولم يكن شيء يشيرهم كسب نسائهم وهم بعيدون عن الحي فكانوا يركبون وراءهم حتى يلحقوا بهن وينقذوهن ويغسلوا عار سبيهن عنهم وهو عار ليس فوقه عار.

وكانوا يصحبوهنّ معهم في الحرب، وكن يشددن من عزائمهم بما ينشدن من أناشيد حماسية حتى إذا قتل فارس ندبنه ندباً حاراً حاضات على الأخذ بثأره والانتقام من قتلته، وتلمع في هذا الجانب أسماء كثيرات على رأسهن الخنساء ومراثيها في أخويها صخر ومعاوية مشهورة. وكن يستشطن غضباً إذا رضيت العشيرة بأخذ الدية حقناً للدماء، على نحو ما تصور ذلك كبشة أخت عمرو بن معد يكرب، وقد قتل أخ لها[٤] وأيضاً تقول أم عمران وهي تحرّض قومها على الأخذ بثأر من قتل منهم وهي تقول[٥]:

---

[١] – أنظر: الأغاني، ١٠/ ١٣.

[٢] – الأمالي، ٢ / ١٠٦. والمخيمر، ص ٣٩٨.

[٣] – الأغاني، ١٨٢/٨، ٣٧

[٤] – رياض الأدب، ص ٦.

[٥] – الحماسة لأبى تمام، ص ٦٨١ – ٦٨٢. والدر المنثور، ص ٦١.

إن أنتمو لم تطلبوا بأخيكمو فذروا السّلاح وحوشوا[1] بالأبرق
وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا نقب النساء فبئس رهط المرهط[2]
ألهاكُمو أن تطلبوا بأخيكمو أكل الخزيز ولعق أجرد أمحق[3]

الشّاعرة تخاطبهم وتقول لهم: إن قعدتم عن طلب الثأر كنتم أجدر بأن تكونوا نساء فيصبح الأولى لكم أن تسلكوا مسلكهن في التكحّل والتنقّب وارتداء ثيابهنّ النّاعمة.

وتدور في كتب الأدب قصص وأشعار كثيرة تصور هيام بعضهم بهنّ وكانوا دائماً يفتحون قصائدهم بذكرهن وما كان لهم من ذكريات معهنّ في بعض المعاهد والمنازل ويمزجون ذلك بالدّموع، على نحو ما يقول امرؤ القيس في مطلع معلّقته:

قِفا نبكِ مِنْ ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقطِ اللِّوى بين الدّخولِ فحوملِ

فالمرأة في الجاهلية لم تكن مهملة بل كان لها قدرها عندهم، كما كان لها كثير من الحرية، فكانت تمتلك المال وتتصرف فيه كما تشاء، وقصة اتجار الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في أموال السيّدة خديجة أمّ المؤمنين مشهورة، وقد دعم الإسلام هذه الحريّة.

وكانت الشاعرة في الجاهلية من حقها أن تلوم وتعتب. ومن أرقى ما أُثِرَ عن الجاهليات عتاب قتيبة بنت النضر بن الحارث[4] وروى أنّ أباه كان من المخاصمين للدّعوة الإسلامية وقد أفسد قلوب كثير من النّاس بالكذب والافتراء، فقد أمر الرسول صلّى الله عليه وسلّم بقتله والتّخلّص منه، فأرسلت ابنته تاتبة بأرقّ القول وأعذبه باكية فتأثر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لعتابها الرّقيق، فقال: (لو سمعت شعرها قبل أن أقتله لما قتلته). فمن كلّ هذا نجد أن للمرأة في المجتمع الجاهليّ مكانة سامية ومرموقة من خلال ما ذكر عنها.

---

[1] – وحشوا: كونوا من الوحوش – المرهط: المضيق عليه.

[2] – الخزيز: لحم يقطع قطع صغارً.

[3] – الأحمق: العليل.

[4] – زهر الادب، ١/ ٢٧ –٢٨.

المبحث الثاني

التّناحر القبليّ وأثره في تطوّر شعر الرّثاء

من الظواهر الاجتماعية في حياة البشر أنّ النساء أسرع تأثّراً من الرجال حين يكون فقدان العزيز والأثير في مجال البداوة من أظهر تأثيراً من الرجال لان هذه الحياة البدوية نتوم عند الرجال خاصة على الشجاعة واحتمال المكارة والتجمل بالصبر حينما تصاب القبيلة بفقد بطل أو كريم تكون المرأة أقل تحملاً للمصاب من الرجل، لأنّها بطبعها أسرع انفعالاً منه نضيف إلى هذا أن الرجل يجابه مشقات الحياة، وهو مسؤل عمن يعول النساء ويبين مارأيناه أنفا لما ينزل به الام، فيتحمل العين في اقتدار ومن ثم كان فقدان العزيز بالموت الطبيعي لا يشغله عن مسؤلياته في حياة، التي إن غفل عنها نزل به الكرب واشتد البلاء، وضاع وهو يقول، واذا فقد الكريم بالقتل أو القدر شغلته مسؤلية حمل الدم، التي تلهيه من الاستسلام للحزن ودفعه واجب الأخذ بالثأر ليفكر منذ اللحظة الأولى في السبيل إليه، وهذا يكون عاملاً نافذاً يقوده الاحتمال الموفق الذي يجابهه، ولقد عبر عن هذه الظاهرة كارل بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربيّ فقال: (على أنّ إظهار الحزن لم يكن يناسب رجال القبيلة، كما كان لائقا بنسائها وخاصة الأخوات، ومن بقي تمهيد الرثاء الفني من مقاصدهن حتى عصر التسجيل التاريخي) [1].

واستشهاد الناء بالرثاء لابد أنه كان ظاهرة اجتماعية في العصر الجاهلي، لأنه كان عصر بداوة، ونستطيع أن ندرك ذلك بسير من استقرائنا لمجهودهن الأدبي في تاريخ الأدب العربي وهي ظاهرة لفت نظر الأستاذ مصطفي صادق الرافعيّ في كتابه (تاريخ آداب العرب) فصورّها في قوله (ولا يهولنك كثرة اسماء النساء اللاتي قلن شعراً، فعمود الشعر عندهن الرثاء، وليس لهن إلاّ المقاطع والأبيات القليلة، ولم تثبت منهن إلاّ الخنساء وليلي الأخيّلة. وما شعرت الخنساء حتى كثرة مصائبها.[2]

---

[1] – انظر: كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربيّ، ١/ ٤٨.

[2] – الخنساء شاعرة بنى سليم: محمد جابر، ص ١٧.

فإذا تركنا هذه النظرة الاجتماعي، وبحثنا في واقع الحياة الجاهلية، حين كانت تعيش المرأة في حياة قاسية، نجد أن محفّزات الرّثاء متوافرة، ولقد جاء في كتابي وصف لهذه الحياة قلت فيها: (هذه الجزيرة الواسعة الأرجاء، ذات الصحاري والفيافي التي وقفت سداً أمام كل غزو أجنبي، فسلم أهلها من اختلاط الدماء، واحتفظت مثل العرب العليا في الجاهلية بكيانها دون تحوير أو تعديل حرية غير حد، وتعصب للقبيلة، ونصرة لابن القبيلة ظالماً كان أو مظلوماً، في بيئة فقيرة. بما تجود به الطبيعة من عيش يتنافس أهلها وراؤه أبقاء على حيوانهم الذي كان يمدهم بالغذاء والكساء، وطلباً للماء الذي جاء نتيجة حتمية لسنة التنازع على البقاء ـ حروب بين القبائل، حروب لا تكاد جذوتها تهدأ حتى تشغل مره أخرى، وهذا ما جعل الحياة السياسية في العصر الجاهلي مضطربة وفوضي، وفي أمس الحاجة إلى أساس يضم الشمل، ويمنع الخصام، وينظّم الحياة الاقتصادية ويوقف الحروب والمشاجرات الّتي بدّدت قوى العرب وارهقتهم ولقد كان في الاسلام من مثله العليا وفي نظمة علاج لهذا كلّه)[1].

فإذا أضفنا إلى هذا أن السماء كثيرا ما كانت تضنّ بالغيث، فيكون الجرب واللهفة على الحفاظ على النفس والحيوان وما يترتب على ذلك من رغبة في السلب والنهب والبطش، وممّا زاد الطين بلة ما تأصل في نفوسهم من وجوب الأخذ بالثأر رأينا أن الجاهلين عاشوا في جو مرير، مشحون بالأسى والترقّب والخشية والقتل والحزن والتأثر، ذلك الجو الذي عمل الاسلام على نقائه من هذه الشرور، نقاء أمتنّ به القرآن عليهم فقال: (اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا)[2].

في هذا الجو الجاهلي يمكن فهم زيوغ الرثاء، وعلى ضوء الظاهرة الاجتماعية التي شرحناها نستطيع إدراك إيثار النّساء له وانشغالهن به لأن المرأة كانت لا تكاد تستلهم الصبر على أخ أو ابن عم أو قريب حتى تفاجأ مرة أخرى بالرزء بعزيز آخر، ولعلّ ذلك كان سبب التصاق الرثاء بالمرأة ولم تتح لها الفرصة لغيره لأن الحياة لم تهدأ لتأخذ حظها الفنيّ المتّصل بالتجارب الإنسانيّة الأخرى. إذن، لم يكن من الغريب أن يكثر الرثاء في العصر

---

[1] – انظر: أنوار، ط (١٩٦٣م)، دار العلم، ص ٢٤ – ٢٥.

[2] – سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

الجاهلي، وان يصدر عن النساء استجابةً لموجات الحزن المتتابعة المصحوبة بانفعال طاغ نحو عزيز أو بطل مؤمل. أثرت الحياة الجاهلية المرأة العربية بالرثاء ولكن لها أن تنهض به في ميدان الأدب فيبدو أن استئثار النساء بالرثاء كان أمراً تواضع المجتمع الجاهلي على الأخذ به حتّى أصبح تقليداً.[1] عملت الحياة على استقراره متجاوبة مع الطبيعة البشرية، وذلك لأنّ الفارس العربي آنذاك كان يذهب إلى ميدان الوغى، لا يدري إن كان من نصيبة أن يعود إلى بيته، أو يموت فداء مثل عليا يعمل لها، وخضوعاً لنزعات نفسيّة واجتماعية متلاحقة تأخذ عيبه لبه، نزعات دعته أن يمضي إلى واجبه – كما فهمته بتغير أو يشجر أو يقتل ومن هنا رأينا الفارس العربي يعينه بأن يناح عليه ويري إذا ما أصابته سهام الردى رغبة في بقاء ذكره بعد الموت، كما كان ملء الأسماع وهي الحياة والطموح إلى الخلود رغبة دفينة في النفوس وإن لم تظهر في الاعتقاد على اللسان. كان رثاء النساء الكرام من قومهن تقليداً يصوره طرفة بن العبد في معلقة قائلا:

ولا تجعليني كالمرء ليس همّه كهمّي ولا يغني غنائي ومشهدي
بطيء عن الجلى سريع إلى الخنا ذليل باجماع الرجال ملهد
ولكن نفي عني الأعداء جرأتي عليهم وإقدامى وصدقي ومحتدي

فهاهو طرفة بن العبد يخاطب ابنة أخيه، لانه لم يكن متزوجاً، وليس له ـ فيما يبدو ـ من نساء ينحنه سواها، يطالبها ويطلب منها أن تبكيه بعد موته، وأن تشقّ جيبها (أي صدر ثوبها) إعلاناً للنّاس عن شدة انفعالها بموته، وبياناً عن عظيم تأثيرها بفقده، شأنها في ذلك شأن غيرها من النساء اللاتي يذهب بعقلهن وقع المصاب لأنّه يستحق هذا منها كما استحقّ هذا الصنيع غيره وإراداة أن يصحب شق جيبها رثاء يكون صدى لما لشخصه من مكان الأبطال، ولما عرف عن شجاعته في الحروب، رثاء يجب أن يتكافأ مع ما اشتهر به من بطولة، وهو ليس من الضعفاء المنبوذين وهو الذي يخشى بأسه الأعداء.

كان الرّثاء تقليداً عند المرأة العربية مرعباً، لا تنساه ولا تهمله بذلك على ذلك كثرة الشاعرات الراثيات مستجيبةً لعواطفها وانفعالها بالمصاب من ناحية، ومؤدية واجبها في

[1] – الخنساء شاعرة بنى سليم / محمد جابر عبد العال.

الميدان الأدبيّ من ناحية أخرى أعني أنّها كانت تقوم به كما يقوم الشاعر بواجب نشر مفاخر القبيلة يتعمد على الانفعال بالتجربة الإنسانية وتصوير الإحساس بالفجيعة، ولكنك تحسّ فيه . بالإضافة إلى ذلك شيئا أخر. ونجد هذا في رثاء الخنساء لأخيها صخر:[1]

يا صَخرُ مَنْ لِطِرَادِ الخَيلِ إذ وُزِعَتْ وَللمَطايا إذا يُشْدَدْنَ بالكُورِ
ولليَتامَى وللأضيافِ إنْ طَرَقوا أبياتَنا لفَعالٍ منكَ مَخْبورِ
وَمَنْ لِطَعْنَةِ حِلْس أَوْ لِهاتِفِه يومَ الصُّياحِ بفُرْسانٍ مُغاوير

فالخنساء تذكر أخاها مقروناً بالأخطار الّتي تدهم القبيلة والحيّ والأسرة متسائلة عمّن يتصدّى لها، ومن يأخذ على عاتقه لقاء الأضياف وإطعامهم والانقضاض على الخصم وفكّ الأسرى وملاقاة الفارس الشجاع، هذا التساؤل وهذه اللهفة عمّن ينهض بعد الفقيد بالعبء، حرصاً على كيان القبيلة، ويدلّ على أنّ الرثاء ينبع من إحساس بارتباط الفرد بالجماعة ارتباطاً تاماً، وارتباط بالرغبة في أن يملأ هذا الترابط المتبادل الذي يجعلها تميز الرثاء الجاهلي الذي يقرن بالبكاء على المرثيّ فرقاً من أكثر فقدان الميت على كيان القبيلة والحى والأسرة أى أثره على الجماعة من حيث بناء مترابط يحملنا على أن نميّزه عن الرثاء في العصور التالية له الذي ينبع من مثل هذا العمق، كما الأخرى يتفقان من حيث الحضور عن العاطفة ومن حيث بكاء الميت وتعداد محاسنه، ولكن الجاهليّ يصدر عن روح الجماعة وإن تحدث به فرد من إحساس بعاطفة عامة شاملة لا بعاطفة موجودة في دائرة محدودة كالأسرة والأصدقاء

وقد يقال هذا اللون من رثاء نعرفه في عصرنا الحديث ولكن مهلاً، الرّثاء الجاهلى ينبع من عرف تقليد اجتماعيّ ويصب فيهما، وعبارته مرتبطة نفسياً واجتماعياً بأوضاع جعلها المجتمع الجاهلي من مثله العليا.

ونجد في الجاهلية شاعرات ظهرن في حروب سهل وسليم منهن ريطة بنت عاصم الهندى وقد رثت أخاها الذي قتلة بنو سهم وهو ظمآن فقالت ترثية وتعاتب قومها:

هلاّ سقيتم بنى سهمٍ أسيركمو نفسي فداؤك من ذي غلة صادى

[1] – النساء شاعرة بنى سليم / د. محمد جابر عبد العال

الطاعن الطعنة النجلاء يتبعها مضرّج بعد ما جادت بأزياد [1]

ومن شاعرات الجاهليّة في أيّام الحروب القبيلة وأيّامهم الأخرى المشهور الفارغة بنت شدّاد[2] ومن تميم آمنة بنت عتبة فارسهم[3]. أمّا الشواعر اللائي عرفن في أواخر العهد الجاهلي أي في القرن الميلادي فمنهن كثيرات في البوادي والمدن. ومن شواعر البدو أمامة بنت ذى الإصبع العدوانيّ[4] وهى من قيس عيلان بن مضر. ومنهنّ فاختة بنت عدي، فقد رثت أباها عندما قتل[5]. ومنهنّ أخت الحاجز الأزدّى الّتي رثته بقولها:

أخي حاجز أم ليس حياً فيسلك خندق والبهيم
ويشرب شربة ماء ترج فيصدر مشية السبع الكليم[6]

تصف الشّاعرة ابنها بأنّه الشّجاع الذي يحارب كانه سبع فصبح في كلامه.

ومنهنّ جنوب الهذلية وهى أخت عمرو ذي الكل وقد عرفت بمرثيها له[7]. ومن شواعر مشهورة وخاصة في مكّة الّتي كان في عكاظها يجتمع الشعراء والشاعرات فيعرضون قريضهم على أئمة الشعر، كما روي عن النّابغة، وقد عرض عليه الأعشى وحسّان شعرها ثم عرضت عليه الخنساء شعرها فأعجب به كلّ الإعجاب[8]. ومنهنّ أيضا ريطة بنت جزل الطعّان الّتي حمت دريد بن الصمة وفاءً لسبق فضله فقالت:

سنجزي دريداً عن ربيعة نعمة وكلّ أمرئ يُجزى بما كان قدما
فإن كانَ خيراً كان خيراً جزاؤه وإنْ كان شراً كان شرّاً مذمّما[9]

---

[1] – الأغاني، ١١/ ١٤ – ١٥.
[2] – العقد الفريد، ٣/ ١١٠. وخزانة الأدب، ٤/ ٥٠٥.
[3] – العقد الفريد، ٣/ ٨٨. و لسان العرب، ٣٦/١٧. وقد نسب إليها الأبيات.
[4] – الأغاني، ٣/ ١.
[5] – المصدر نفسه،١٠/ ٦٥.
[6] – يلاحظ الاغنى ج ١٢ ص ٥٢ معجم ما استعجم ص ٦٩٨
[7] – البغداديّ: خزانة الأدب، ٢/ ٢٨، ٤/ ٣٥٣، ٣٥٦ – ٥٠٥.
[8] – المصدر نفسه، ٢٠٨/١.
[9] – العقد الفريد، ٣/ ٧٩.

ترثيه وفاءً لفضيلة وهي تجازيه بما يقدّم لها خير الجزاء. ومنهنّ زينب بنت مالك ملاعب الأسنة العامرية، وقد رش يزيد ابن عبد المدائن وهو يماني وهي نزارية ولأنّه فكّ أسرى من قومها[١] فلامها جماعة من الناس كيف ترثيه وهو من خصوم نزار؟ فقالت تردّ عليهم:

ألا أيّها الرّازي عليّ بأنّني خزاريّةٌ أبكي كريماً يمانيا
وما لي لا أبكي يزيداً ودوني أجرّ جديداً مدعى ورداائيا[٢]

وأيضاً منهنّ سبيعة بنت عبد شمس زوجة مسعود بن معتب الثقفي وكانت مكرّمة عنده حتى أنّه ضرب لها خباءً يوم حرّ ثقيف وقريش، وقال من دخله من قريش فهو آمن، فدخله منهم كثيرون، وصارت توسع هذا الخباء حتى عظم ولها رثاء في عبد المطّلب بن عبد مناف[٣] كما أنّ من شواعر مكّة أيضاً فاطمة بنت الأحجم وأمّها خالدة بنت هاشم سبق ذكرها ومن شعرها في رثاء إخوتها:

إخوتي لا تبعدوا أبداً ويلي والله قد بعدوا
لو تملتهم عشيرتهم لاقتناء العنا وولدوا
هات من بعض الرزية أو هان من بعض الذي أجرا [٤]

وكان لعبد المطّلب ستة بنات شاعرات ولهنّ شعر رصين العبارة، قوى السيك، سامي المعانى، ومنهم صفية وبرد وأم حكم البيضاء[٥]. أمّا المشركون في عهد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم فكان بينهم شواعر يقلن الرثاء في المعارك والعادات القبيلة ومنهنّ هند بنت عتبة أمّ معاوية، فقد رثت قتلى بدر المشركين[٦] وصفيّة بنت مسافر بن أبي عمر بن أميّة، ولها

---

١ – الأغاني، ١٠/ ١٥٠ – ١٥١.
٢ – المصدر نفسه، ص١٥١.
٣ – مراثي شواعر العرب، ص ٦٤ – ٦٥.
٤ – مراثي شواعر العرب، ص ٦٨. وحماسة أبي تمّام، ١/ ٧٢.
٥ – ابن هشام: سيرة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ١/ ١٠٨ – ١١١.
٦ – المصدر نفسه، ١/ ٥٣٧.

رثاء في قتلى القليب من قريش[١] ومن المكيّات سبعة بنت الأحب زوجة عبد مناف بن كع بن كنانة، وقد روت لها السيرة مقطوعة في كرامات مكة توصي والدها فيها أن يرعى قدسية هذه المدينة.[٢] وقد أوردنا أبياتها في تمهيد هذه الرّسالة.[٣]

أمّا المدينة فالظّاهر أنّ أكثر شعر شاعراتها قد ضاع ما ورد لهنّ منه القليل ومنهن سارة القرضية ولها رثاء في قتلى من قومها حين قتلهم أبو جليلة في وادي ذى حرض قرب المدينة ومنه:

كهولٌ من قريضة أتلفَتها سيوفُ الخزرجيةِ والرماحُ
رُزِئنا والرَّزِيَةُ ذاتُ ثقلٍ يمرُّ لأهلها الماءُ القراحُ [٤]

والحيرة لا بدّ أن يكون فيها عدد كبير منهن بيد أنّه لم يصلنا شيء يناسب مقامها وممّا وصلنا من أشعارهنّ ما قالته رقاش أخت جزيمة ملك الحيرة الّتي زوجها وهو ثمل لأحد ندمائه، فلمّا أفاق استنكر ذلك أن لم ير الزّوج كفئاً لها ولكنّها رضيت به وكان يحبّها، فقال لها أخوها مستنكرا:

حدثيني رقاش لا تكذبين أبجر رزيت أم بهجين
أم بعبدٍ وأنت أهل لعبد أم بدونٍ وانت أهل لدونِ

فأجابته:

---

[١] – نفس المصدر ج ١ ص ٥٣٨

[٢] – المصدر نفسه، ١/ ٦١.

[٣] – المصدر نفسه، ١/ ٣٥.

[٤] – شيخو: مراثي الشّواعر العرب، ص ٤ – ٥.

المبحث الثالث

طبقات المرثيّين

ممّا أسلفنا ذكره في الرّثاء والنواح وما يتصل بهم إذن هو فنّ النساء الشعريّ في العصر الجاهلي؛ لأنّهما يصدران من الحزن، والمرأة أكثر استجابة ومطاوعة للأحزان، وأشدّ انصياعا لتأثير العواطف، ثمّ إنّ هذا الرثاء نفسه إذا استعرضناه وجدنا المرأة قد خصصّت جمله بأن يكون ظاهر التفجيع بيّن الحسرة، مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام إن كان الميت ملكاً أو رئيساً كبيراً. ولعلّ أوّل ما يُلاحظ في هذا الصّدد أنّ أشعار المرأة نجد لها منزلة عالية فيه، فقد اتّخذت موضوعاً لقصائد مطولة رائعة[١] واحتلّت مطالع كثير من هذه القصائد، فكانت إذن هدفاً لقسمٍ كبيرٍ من أناشيدهم وهذا راجع بالطبع إلى منزلتها لأنّ أول شعر المرأة وأهمّها فنّ الرّثاء الذي أجادته بكلّ صوره بقرب أو بعد كمدح في الشجاعة التى يبديها الشاعر في حياته أو كالثناء على كرمة أو الفخر بانتصارته الحربية أو كاللّوم أو العتاب فنجد المرأة تفوقت في فنّ الرثاء إذ رثت وساهمت في كلّ طبقات المرثيّين من خلفاء أو ملوك أو وزراء أو أهل أو أقارب.[٢].

ومن رثاء المرأة في طبقات المرثين أوّلها أنّها شاركت في رثاء سيد الخلق محمد صلّى الله عليه وسلّم، فكانت تصفه وتعبّر عنه بتعابير تصف فقدانه ثم تصف الشمس وكآبتها وظلام الليل والنهار والأرض ورجفانها فترثيه فاطمة رضي الله عنها أحبّ خلق الله إليه:

اغبرّ آفاق السماء وكورت	شمس النهار وأظلم الغفران
الأرض بعدك يا نبيّ كئيبة	أسفاً عليك كثيرة الرجفان
فلبيكه شرق البلاد وغربها	ولتبكه مضر وكلّ يماني[٣]

وقد رثته صلّى الله عليه وسلّم ـ أيضاً ـ عند مماته عمّته أورى:

---

[١] – أبو تمّام: الحماسة، ١/ ٢٧٩.

[٢] – الدر المنثور، ص ٦٣.

[٣] – ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٢ / ٣٢٨.

أيا عينيّ ويحك أسعفينى بدمعك ما حييت وطاوعيني
ألا ياعين ويحك فاستهلّي على نور البلاد وأسعفيني
وإن عذلتك عاذلة فقولي علام وفيم ويحك تعذلينى؟
فإلّا تقصري بالعذل عنّي فلومى ما بدا لك أو دعينى
لأمر هدنى وأدرك ركنى وشيب بعد جوبتها قروني[١]

نجد أروى عمّة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم تصف لنا فراقه وتحث عينها أن تسعفها وتساعدها على البكاء وتطاوعها بإنزال الدّموع فهي تتألم لفراقه وقد هزّ الفراق جسمها وشيّب رأسها.

وقد أسلمت الأمة لله رب العالمين، ولم تعد القضية على المسلمين فقد بطل شجاع كريم شهم فقط، كما هي الحال في كل مراثي العرب أن القضية العظمي فقدان نور الله تعالى ووحيه، وانقطاعه عن الأرض بعد وفاة النبي صلّى الله عليه وسلّم. أدرك هذا المعنى كل فرد في الأمّة صغيراً وكبيراً وطفلاً وزعيماً، وذكراً وأنثى، وعبّر عنه شعراء العربية فجاء شعر الرثاء ليعطى هذه القضية الأولى في خسارة الأمة ويأتي بعدها ما يؤديه المصطفي صلّى الله عليه وسلّم على الخلق جميعاً من بقية الفضائل، لكنّ قضية الوحي هى التى أنفردت فيها عن الخلائق جميعا ما عدا النّبيين والمرسلين وبه اختتموا فحرمت الارض بعدها من هذا النور (قل إنّما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ)[٢].

ومن بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رثت النساء الخلفاء من بعده، فنجد عائشة تمثلت على قبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه بقول متمّم بن نويدة[٣]:

وكنا كندماني جزيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا
وعشنا بخيرٍ في الحياة وقبلنا أصاب المنايا رهط كسرى وتبّعا
فلمّا تفرّقنا كأنّي ومالكاً لطول اجتماعٍ لم نبت ليلةً معا

---

[١] – منح المدح ، ٣٥٨.

[٢] – سورة الكهف: الآية الأخيرة.

[٣] – المبرّد: الكامل في الأدب، ٢/ ٣٢٣.

هذا هو الرثاء الّذي يدلّ على وفاء نادر من ابن لأبيه، ومن حبيب للحبيب، تجلّت فيه مشاعر الحزن الشّجيّة والذّكرى النديّة. ومن الرثاء الخالد الّذي يتجدّد مع الأيّام قول لبيد الذي تمثلت السيّدة عائشة أمّ المؤمنين أيضاً به،[1] فتقول:

ذَهَبَ الّذين يُعاش في أكنافهم وبقيتُ في خلقٍ كجلدِ الأجرب
يتحدثون بحانة وملاذة ويعاب قائلهم وإن لم يشغب
إن الزرية لا زرية مثلها فقدان كلّ أخٍ كضوء الكوكب

فإنّ النّفس خطبُها عظيم للاستشهاد به على نبل الشّعور في كل عصر ومصر.

وتقول عاتكة في رثاء زوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه:[2]

من لنفس عادها أحزانها ولعين شقها طول السهر
جسد لفف في أكفانه رحمة الله على هذا الجسد
فيه تفجيع لمولى غارم لم يرعه الله يمشى بسير

فالعاطفة هنا عاطفة أنثي تتألّم على قتل السيد العظيم خليفة الإسلام، ثمّ تصف حالها بعده من القلق وتدعو للفقيد بالخير والبركات والرحمة حيث كان أمير المؤمنين عوناً للمحتاج وذوي المغارم. أمّا أمير المؤنين عليّ رضي الله عنه تقول فيه بعض نساء بنو طالب:[3]

يا خير سيدنا المجن له صلّى الإله عليك يا قبر
ما ضرّ قبراً أنت ساكنه أبداً لا يحل بأرضه القطر
فليندينّ سماح كفك في الثرى وليودقن بجنبك الضخر
والله لو يك لم أجد احدا الإ قتلت لفاتن الوتر

فنجد الرثاء هنا دعوات صادقة من قلب شجى للفقيد بإنزال الغيث ثم تعقيب على مآثره وفضائله.

---

[1] – المبرّد: الكامل، ٢/ ٣٢٥.

[2] – شاعرات العرب، ص ٢٣٥.

[3] – مقاتل الطالبين، ص ٤٤.

ومن الرّثاء في ذلك أيضاً ما عبّرت به الخنساء عن تعزيتها بكثرة من نكبوا بأهلهم وكثرة الباكين حولها إذ تقول:[1]

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلتُ نفسي
ولكن لا أزال أرى عجولاً ونائحة تنوح ليومِ نحسِ
هما كلتاهما تبكى أخاها عشية رزئه أو غب أمس
وما يبكين مثل أخى ولكن أسلّي النفس عنه بالتأسّي

من هذا الضرب نجد فيه التفكير في رحلة الموت والحياة ومصير الناس وحتمية الأقدار ونزول البلاء وضعف الإنسان أمام نوازل الدهر ومصائب الزمان، فليلتمس من ذلك السلوى والصبر والرّضى بما نزل به والاستسلام للقدر.

وعليه فيجدر بنا ألاّ نعلّل قلة رثاء المرأة في تلك الأغراض بإهمال الّرواة أشعار قالتها في غير الرثاء عن عمد، لأنّ موقف الرواة من مراثيها كموقفهم تماماً من الأغراض الأخرى، وإلاّ فمن ذا أجبرهم على نقل شعرها في تلك الأغراض – على قلّته – إذا كانوا قد قرّروا سلفاً دفن ماعدا المراثي لها؟ لقد كان على الشاعرة في العصر الجاهلى أن تصمد، حتى تتاح لها الفرصة فتنطلق بالقول.[2]

ولا فرصة أمام المرأة غير رثاء الأقارب ـ وخصوصاً الأخوة ـ وغير الفخر بهم والتحميس في الثأر لهم، وهجو من تعرّض لها بسوء، ووصف ماعليها حياتها المتقلبة في الحدود التى تسمح به طبيعتها وأفكارها، وهذا ما صنعته الخنساء ووصفت فقالت في أبيها وأخيها حين تسابقا، وكان السابق الأخ، إلاّ أنّه تباطأ حتّى سبقه الأب، وقد أحرجها النّاس بقولهم: (لئن مدحتِ أخاكِ فقد هجوتِ أباكِ). وما كانت الخنساء بالتى تستسلم للهزيمة، خصوصاً في ذلك اليوم، فتخلّصت من الإحراج بأبيات وصفت فيها السّابق أرق وصف، ومدحت في ثنايها أباها وأخاها.

[1] – شرح ديوان الخنساء، ص ١٥٢ – ١٥٣.

[2] – شرح ديوان الخنساء

وقالت: [1]

جارى أباه فأقبلا وهما ... يتعاوران مَلأَةَ الفخرِ* [2]
حتى إذا جد الجراء وقد ... ساوى هناك القدر بالقدر [3]
وعلى هتاف النّاس: أيّهما؟ ... قال المجيب هناك – لا أدري

نجد في هذه الأبيات كثير من اللّمحات الفنيّة الّتي تتمّ عن شاعرية مكتملة، وشاعرة ناضجة فصورت السابق تصويراً نابضاً بالحياة كأنّه حدث تشاهده العيون وأيضاً رثاء المرأة في الأهل نجد شيبانية في حزنها على أهلها فقال خليفة بن خياط: ما رأيت أشدّ كمداً من امرأة من بنى شيبان قتل ابنها وأبوها وزجها وأمّها وعمتها وخالتها مع الضحاك الحدوري، فما رأيتها قط ضاحكة ولا مبتسمة حتى فارقت الدّنيا، وقالت ترثيهم:

من لقلبٍ شفّه الحزن ... ولنفسٍ ما لها سكنٌ
ظعن الأبرارُ فانقلبوا ... خيرهم من مبشرٍ ظعنوا [4]
معشرٌ قضّوا نحوبهم ... كلّ ما قد قدموا حسنوا
صبروا عند السيوف فلم ... ينكلوا عنها ولا جبنوا
فتية باعوا نفوسهمو ... لا، وربِّ البيت ماغُبِنوا
فأصابّ القومُ ما طلبوا ... منّة من بعدها مننوا

---

[1] – زهر الأب ج ٤ ص ٩٥٢

[2] – الجراء: جري الفرس.

[3] – الحضر: عدو ذو وثب.

[4] – أحمد بن عبد ربّه: العقد الفريد، ط (٣)، ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٣م.

المبحث الرّابع

فضائل المرثيّين

ومثلما وصف الشعراء الحالة التى آلوا إليها رسموا مجاري دموعهم المرهفة، وصوّروا أفئدتهم الملتاعة وأرقهم وطول سهرهم، عمدوا على تخليد مناقب وصفات فلذات أكبادهم. وقد بكى الشاعر هذه المناقب التى لها ثقلها في المجتمع والتي يعّد صاحبها ذا شأن ومكانة في الحياة.

ومن أهمّ تلك الفضائل التى يرثي بها الشعراء موتاهم: الشجاعة، الإقدام، والبطولة، والكرم، والجود، والسماحة، والعفّة. وهذه الصّفات والفضائل التى يرثي بها الشعراء موتاهم نجد رثاء قول المعتمد بن عباد في رثاء ابنيه المأمون والراضي:

مدى الدهرِ فليبكِ الغمامُ مصابَه بِصِنْوَيْهِ يُعْذَرُ في البكاءِ مَدَى الدّهرِ
بعينِ سحابٍ واكِفٍ قطرُ دمعها على كلِّ قبر حل فيه أخو القطر[1]

وفي السّماحة يرثي أبو محمد أولاده :

وعفاف وسماحة وطلاقة وتودد
ومذهب محض الهندا ئب للصواب مسدّد [2]

قد يخلع الشّاعر بعض صفات العلماء والأدباء ومآثرهم على ابنه مجسّداً ذلك في الصورة التى سيؤول إليها مستقبلاً، ومشيداً إلى علامات النبوغ وتوقّد القريحة عنده، ومن ذلك يقول ابن عبد ربّه في رثاء ابنه:

---

[1] – المعتمد بن عباد، مكتبة مصر ، ٢ / ٢٨٢.

[2] – أخبار الشعراء المحدثين، ط (٢)، دار بولاق ودار الميسرة، القاهرة، ١/ ٢٠٥.

ثأري وأمي هالكاً افتدته وقد كان في كل العلوم مريدا
والأغشمين فصاحةً وبلاغةً والأغشمين روايةً ونشيدا [١]

وأيضاً نرى جنوب وهي ترثي أخاها وتصفه بالكرم، وتصوّر لنا حالة الضيوف في أيّام الجفاف والعسر فتبكيه بقولها: [٢]

لَقَدْ عَلِمَ الضَّيفُ والمرملونَ[٣] إذا اغبرَّ أُفقٌ وهبّتْ شَمالا
وخَلَت عن أولادها المرضعات ولم ترَ عيناً لمزنٍ بلالا
بأنك ربيع، وغيث مريع وقدماً هناك تكون الثّمالا[٤]

نجد جنوب تصوّر لنا أخاها ربيعاً وغيثاً يروي عند الحاجة والمحن، حتى أشدّ أيام ضيقهم فكيف به إذاً من حيث السعة والخير – وهل هناك صورة خير من هذه الصورة التى تسحر لبّ المرأة، ربيع وخيرات عميقة في كل وقت وحين، وحتّى في الضيق والشدة ومن هذا ما قالته هند بنت عتبة أم معاوية في أبيها بعد قتله في واقعة بدر[٥] وللكرم صور كثيرة في كل زمان ومكان وإن اختلفت أشكالها باختلاف الحاجة والأمكنة، فمن صنوف الكرم في بلاد العرب قديماً فك الأسرى والعانين، وهذا ما نسبته أمّ بسطام لابنها ورثته بقولها:

سيبكيك أسرى طالما فككتهم وأرملة ضاعت وضاع عيالها
ويبكيك عانٍ لم يجد من يفكّه ويبكيك فرسان الوغى ورجالها[٦]

فليس بغريب على نساء العرب أن يمدحن الكرم بصوره المختلفة، ويشّجعن عليه، ويظهرن عليه استعدادهنّ لمعونة الرّجل فيه، كما فعلت زوجت سالم ابن قحطان العنبرى إذ

---

[١] – العقد الفريد ابن عبدو ربه ج ٣ ص ١٨٣
[٢] – زينب فوّاز: الدرّ المنثور، ص ١٣١. وشيخو: رياض الأدب، ص ٨٣.
[٣] – المرملون: من فل دارهم تصف وقت الشتاء ولم تجد قوتاً ولا بللا.
[٤] – الثّمال: الذّخر. المريع: المخصب.
[٥] – المرجع نفسه، ص ٥٣٨.
[٦] – المرجع نفسه، ص ٥٥.

سألته بأسلوبها الشعرى أن يهب وقالت أنّها أحدث لكلّ ناقة خطماً تُقاد منه إذا ما وهبها لسائل.

ويأتي بكائهنّ شجاعة القتيل وكرمه، بكاؤهن شرفة وجاهه، فقد أظهرت الشواعر عنايةً في شرف من رثيته فذكرت أنّه من خيرة النّاس نسباً ومن سادتهم منزلة، وأنّه ينادم الملوك ويشرب بكأسهم.[١]

والشرف عنصر من عناصر القوة أيضا في كلّ عصر ومصر، إذ هو قوّة معنويّة تحبّ النساء أن تركن إليها، فتستظلّ بضيائها، ولهذا بكت الشواعر الشّرف كثيراً، فقالت دخنتوس ترثي أباها لقيط بن زرارة بقولها:

عثر الأغرّ بخير خندف كهلها وشبابها

إلى قولها:[٢]

ورئيسها عند الملو كِ وزين يوم خطابها
وأتمّها نسباً إذا رجعت إلى أسبابها
ورعى عموداً للعشيرة رافعاً لنصابها

وذكرت المرأة الشاعرة في مراثيها بجانب هذه الصفات الشدة، وحسن التدبير، والنطق الحكم الذي تفض به المشاكل وغير ذلك.

قالت أمّ قيس الضبيّة ترثي ابنها:

ومشهد قد كفيت القائدين به في مجمع من نواحي الناس مشهود
فرجته باللّسان غير ملتبس عند الحفاظ وقلب غير مزؤود
إذا قناة أمرى أزرى بها حور هز بن سعد قناة صلبة العود [٣]

---

[١] – حماسة أبي تمّام، ٢/ ٢٧٠. والألوسيّ: بلوغ الأدب، ١/ ٥١ – ٥٢.

[٢] – الدّر المنثور لزينب فواز ص ١٩١

[٣] – لسان العرب، ٢٠/ ٢٠١. تاج العروس، ١٠/ ٣٧.

وأيضاً من الصّفات المحبّبة لهنّ العفّة[١] والحماية[٢] والعفو[٣] والقدرة على الكسب[٤] وتحمّل الأمور الجسيمة[٥] والحكمة في المنطق، والقدرة على الإقناع[٦].

وفي هذا القول ناجية بنت ضمضم ترثي أخاها:

الدافع الخصم الألـ ـدّ إذا تفوضح في الخصومة
بلسان لقمان بن عا د وفضل خطبته الحكيمة
ألجمتهم التجا ذب والتدافع في الخصومة[٧]

ومما جمع كثير من الفضائل الجاهلية رثاء الخنساء لأخيها صخر في قصيدتها المشهورة ومطلعها:

أعيني جودا ولا تحمدا ألا تبكيان لصخر النّدى[٨]

فقد نوّهت فيها بكرمه، وشرفه، وشجاعته في الشّدّة وسيادته وقدومه، وحسن كفايته كما أشارت إلى علوّ منزلته في أهله وذويه.

وهذا الرثاء كله يدل على شخصية المرأة في البئية الجاهلية خاصة في ساعات الأحزان والمآتم، فهي تقوم إلى جانب الرجل في إنشاء المراثي الّتي تشيد بفضائل المرثيّ من ذلك قول الخنساء في أخيها وهي تصف فضله وشجاعته وتقول:

فمن للحرب إن صارت كلوحاً وشمّر مشعلوها للنهوضِ
وخيلٍ قد دَلَفْتَ لها بأُخْرَى كأنَّ زُهاءَهاَ سَنَدُ الحَضيضِ
إذا ما القومُ اَحْرَبَهُمْ تُبُولٌ كذاكَ التَّبلُ يُطْلَبُ كالُقروضِ

---

[١] – خزانة الأدب، ٣٠٧/٢. معجم البلدان، ٤/ ١٥٥. شرح ديوان الخنساء، ص ١١٤.
[٢] – الدر المنثور، ص ٣٥٨. أنيس الجلساء، ص ١٤٤.
[٣] – المصدر نفسه، ص١٩١.
[٤] – المصدر نفسه، ص ١٣١. ورياض الأدب، ص ٨٣.
[٥] – الدرّ المنثور، ص ٣٥٥ – ٣٥٨.
[٦] – المصدر السابق، ص ٣٥٨.
[٧] – الدرّ المنثور، ص ٥١٨.
[٨] – المصدر السابق، ص ١١٣.

بكلِّ مهنَّدٍ عَضْبٍ حُسامٍ دَقيقِ الحَدِّ مصقولٍ رحيضِ [1]

ترثي الخنساء أخاها تصفه بأنّه السند، وهو الّذي يناضل في الحروب بشجاعة، وتصفه بأنّ السيف في يده كأنّه ماء من شدة بياضه وصفائه، وترثيه بكرمه وشجاعته وإغاثته للجار وإصلاح ذات البين والحكم في قولها:

فَمَنْ لِقِرَى الأَضْيافِ بَعْدَكَ إِنْ هُمُ قُبالَك حلّوا ثمّ نادَوا فأسمَعوا
كعهدِهِمِ إذْ أنت حَيٌّ وإذْ لَهُم لَدَيكَ مَنَالاتٌ وريٌّ وَمَشْبَعُ
وَمَنْ لِمُهِمٍّ حَلَّ بالجارِ فادِحٍ وأمرٍ وَهَى من صاحِبٍ ليسَ يُرْقَعُ
وَمَنْ لِجَلِيسٍ مُفْحِشٍ لِجَلِيسِهِ عَلَيهِ بِجهلٍ جاهِداً يَتَسَرَّعُ

نجدها في رثائها لم تخرج من دائرة وصف الأحزان، وتعداد مناقب أخوَيها كما يعدد الرجال مناقب الرجال. ولقد تعاظم هي وهند بنت عتبة في مصبتيها، وادّعت كل من منهما أنّها أعظم بلوى، فالخنساء تعاظم بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية، وهند تعاظمها بأبيها عتبة وعمه شيبة وأخيها الوليد، ولكنهما في هذه المفاخرة لم يخرجا عن هذا السياق وإنّما نوّهتا بالمحامد المألوفة، قالت الخنساء:

أُبَكِّي أبي عَمراً بعينٍ غزيرةٍ قليلٍ إذا نامَ الخَلِيُّ هجودُها
وَصِنوَيَّ لا أنسَى مُعاويةَ الّذي له من سَراةِ الحَرّتَينِ وُفُودُها
وَصَخراً ومن ذا مثلُ صخرٍ إذا غدا بساحتِهِ الأبطالُ قزمٌ يَقودُها

وفاخرتها هند بأبيها عتبة، وعمّها شيبة، وأخيها الوليد؛ فهي أعظم مصيبة حيث تقول:[2]

أُبَكِّي عميدَ الأبطحينِ كِليهما ومانِعَها من كلِّ باغٍ يُرِيدُها
أَبِي عُتبَةُ الخيراتِ ويحكِ فاعلمي وَشَيْبَةُ والحامي الذِّمارَ وليدُها
أولئِكَ آلُ المجدِ من آلِ غالِبٍ وفي العِزِّ منها حين يُنْمَى عديدُها

---

[1] – الدّيوان، ص ١٥٩.

[2] – الاغاني، ٤/ ٢١٢.

فأجابتها الخنساء أيضا:

مَنْ حَسّ لي الأخَـوينِ كالغُصنينِ أو مَن راهُمَا
أخوينِ كالصّقرينِ لَمْ يَرَ ناظِـرٌ شَرواهما[1]
أبكي على أخويّ بالقبرِ الذي واراهُما
لا مثلَ كهلي في الكُهول ولا فتًى كفتاهما
سـادا بغيرِ تكلُّفٍ عفواً بفيضِ نَداهُما [2]

والخنساء تنتزع النزوع نفسه في رثاء زوجها مرداس بن أبي عامر السلميّ فتشيد بفضائله من عزيمة وشجاعة وقوة وتخليصه للسبايا تقول:

وفضل مرداساً على النّاس حِلْمُهُ وأن كلُّ همٍّ هَمَّهُ فهو فاعِلُه
وسبيٍ كآرام الصريمِ تَرَكْتَهُ خلالَ ديارٍ مستكيناً عواطِلُه
متى ما تُوازِن ماجداً يُعْتَدَل بِهِ كما عدّل الميزانَ بالكفِّ ثاقِله[3]

ومن فضائل المرثيين أيضاً نجد وصف ليلى الأخليّة لبطولات زوجها[4]:

وصحراء موماة يحاربها القطأ قطعت على هول الجنان بمنسرى[5]
يقودون قطأ كالسراحين لاحها سراهم، وسير الراكب المتهجر[6]
فلما بدأت أرض العدو سيقتها مجاج بقيات المزار المقير[7]
ولما أهابو بالنهاب حويتحها بخاظي البضيع كره غير أعسر[8]

---

[1] – شرواهما: ملتهمة.
[2] – ديوان الخنساء، ص ٢٦٥. والأغاني، ٢١٣/٤.
[3] – ديوان الخنساء، ص ١٩٩.
[4] – ديوان ليلى: ص ٧٢ – ٧٣. والأصفهانيّ: الأغاني، ١١/ ٢٣١ – ٢٣٣.
[5] – منسر: كمنبر قطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير.
[6] – السراحين: ج سرحان وهو الذئب.
[7] – المقير: المطلي بالغار وهو الزفت والضمير في صيغتها عائد إلى الخيل. مجاج: ماتمجه من فيك، المزاد واحدها المزادة وهي الظرف الذي يحمل فيه الماء.
[8] – النهاب: الغنائم.

ممر ككر الأندريّ مثابر إذا ما ونين مهلب الشد محضر
فألوت بأعناق طوال وراعها صلاصل بيض سابغ وسور[1]

هكذا مضت ليلي تصف بطولات زوجها توبة، ومغامراته في جوف الصحراء وتصف تلك الكوكبة من الجيش تقود الخيل الضامرة كانما هي الذئاب الهائجه وقد لوحها وأنهكها سرى الليل ومسيرها في الهاجرة المحرقة، وعندما وصلت هذه الكوكبة أرض العدوّ أسقيت تلك الخيل البقية الباقية من الماء الذي احتفظت فيه لتقويها على مهاجمة العدو، وخضت المعركة مع عدوك، فانتصرت عليه وأخذت غنائم بهذه الخيل المكتنزة اللحم الّتي أسعفتك في مواجهة عدوّك، وبعد أن تحوز الغنائم، ثم تمضي خيلك وتكرّ فيها مغادراً أرض العدو كلّ ما دنت هيجتها على العدو السريع ما استطعت فألوت بأعناقها الطوال، وفوقها أصوات قعقعة السلاح وصليل الدروع يزيدها رهبة وسرعة.

[1] – الصلاصل: واحدها الصلصلة وهي الصوت. السور: جملة السلاح وخص بعضهم بالدروع.

المبحث الخامس

الخصائص الفنيّة في شعر الرّثاء عن المرأة الجاهليّة

الرثاء من الفنون التي جود فيها الشعراء، لأنّه تعبير عن خلجات قلب حزين وفه لوعة صادقة وحسرات حري، ولذلك فهو من الموضوعات القريبة إلى النفس، لأن الرثاء الصادق تعبير مباشر قلّما تشوبه الصنعة أو التكلف، والحياة الجاهلية حياة حرب ودماء وغارات يسقط إثرها القتلى، فيبكى الأهل والأصحاب قتلاهم، ويثرون ببكائهم دموع قبائلهم ويؤجّجون أحزانهم.

فالرثاء في الجاهلية له خصائص فنية عند المرأة الجاهلية إذا كانت النساء لهن رثاء مثل البكاء والنواح والعويل على الميت فكان للنساء القدر الوافي من هذا الفن وأيضاً الرجال. بل ربما كان الحظ الأوفر من القيام علىه إذ كن هن اللائي يقومن على ندب الميت أياماً، بل ربما امتد قيامهن عليه سنوات، وكن يحلقن شعورهن بأيديهن ويلطمن الخدود بالجلود وبالنعال أحيانا. أو يشققن جيوبهن، إلى أن جاء الإسلام وحرّم هذه العادة[1].

ويرى بعض النّاس من مظاهر هذا الفن ما نقش على القبور والأقيال والأزواء أو صورة الكتابة على القبور تخليداً لذكر الميت وتمجيداً لأعمالهم وكانت هذه هي الصورة الأولى للتأبين والإشادة بفضائل الميت على أنّها صورة ساذجة[2].

---

[1] – ابن حجر العسقلانيّ: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دط، دت، إدارة البحوث العلمية السعودية، ١٦٥/٣.

[2] – شوقي ضيف: الرّثاء، ص ٣٣٦.

أمّا الندب على الميت فهو وسيلة للتكسب حيث كان الناس يستأجرون بعض النساء للقيام بدور النائحات فأصبح هناك متحرفون ومحترفات يعولون في المأتم بأشعار تصنع لهم[١].

ومن الصور الفنية للمرأة في الجاهلية كان لها النصيب الأكبر إذ كانت تندب أباها وإخوتها وما تزال تنوح على من يلقى منهم حتفه وعلى من يموت قصفا بالرماح والسيوف، وكان كلّ يوم يخلّف وراءه صرعى، وكلّ صريع ترثيه النادبات من أهله وقبيلته، وكنّ يخمشن وجهوهن ويقرعن صدورهمن على من قضى عليه الأعداء، أو طوّحت به الأقدار إلى مهاوي القبور. وكتاب مراثي شواعر العرب للويس شيخو يصوّر لنا ما قامت به المرأة في هذا الجانب المظلم الحزين؛ إذ كانت هى الّتي تعبّر عن ألم القبيلة وحزنها على أبطالها وخاصة عقب الأيام والحروب، ولم تكن تقصد إلى إظهار الحزن فحسب، بل كانت تقصد أيضاً إثارة القبيلة على خصومها.[٢]

ونجد أشهر من بكت واستبكت في الجاهلية الخنساء؛ إذ قتل أخوها معاوية في بعض غاراته، فعقدت عليه مأتماً ضخماً بالنّواح، وأثار ذلك أخاها صخراً فثأر له، ولكنّه جُرِحَ جرحاً بليغاً أدّى إلى وفاته، فعادت إلى نواحها بأشدّ ممّا صنعت على أخيها معاوية، وكأنّما سعر صخر قلبها، وأشعل صدرها بشعلة من الحزن لا تخبو ولا تهدأ.

وظلّت تبكي عليه حتّى لحقت بالإسلام وأسلمت، ومع ذلك ظلت ذكرى صخر علقة بنفسها وفيه تقول:

قذًى بعينكَ أمْ بِالعينِ عُوَارُ ... أَمْ ذرفت أَنْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِها الدَّارُ[٣]
كأنّ عيني لذكراه إذا خطرَت ... فَيْضٌ يسيلُ على الخدّينِ مِدْرارُ[٤]
فالعينُ تبكي على صخرٍ وحقّ لها ... ودونَهُ من جديدِ الأرضِ أستارُ[٥]

---

[١] – المرجع السابق، ص ١٢.

[٢] – شوقي ضيف، ص ١١٣.

[٣] – العوار: الرمد، ذرفت: اقطرت متعاقباً.

[٤] – فيض: الماء الغزير ومدراراً كبيراً.

[٥] – الأستار: الأجحار. وجديد الأرض كناية عن أنّه مات حديثاً، فأرضه الّتي دفن فيها لا تزال جديدة.

تبكي خُناسُ وما تنفكّ ماعمدت ... له عليه رنينٌ وهى مقتارُ[1]
تبكي خناسُ على صخرٍ وحقَّ لها ... إذ رابَها الدَّهرُ إنّ الدَّهرَ ضرّارُ[2]
بكاءَ والهةٍ ضلَّت إليفتها ... بها حنينات إصغار وإكبار[3]
تَرعَى إِذَا نَسِيَتْ حَتّى إذا ادّكرَتْ ... فإنَّما هي إقبالٌ وإدبارُ
وإنَّ صخراً لتأتمّ الهداةُ به ... كأنَّه عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ

وواضحٌ أنّ الأبيات تمتلئ بالمشاعر الصّادقة، وهي مشاعر أخت تعمّقها الحزن، بل إنّ قلبها يكتوي به، وهي لا تملك إفصاحاً عن حرارته في أحشائها إلاّ هذه الكلم الملتاعه، فهى الّتي تحمّلها كلّ ما تشعر به من وجدْ، ترفع بها صورتها وترجمة كترجيع الواله من الحيوان على بعلها، فهي لا تقصد ولا تعتدل، بل تفرط في نحيبها وتعلو بتشجيها ونواحها ما وسعها إلا الإفراط والغلوّ، وأنّ أخاها الذي كان أملها في دنياها بعد أن خطفته المنون قد أصبح بين عشيّةٍ وضحاها خلف أستار وأحجار. وما تزال الأرض التى وسد فيه جديد، فموته منذ أيّام نزوله في هذه الحفرة المظلمة لم يمض عليه إلاّ فترة قصيرة، وهي تنظر إليه من حولها كما عوّدها فلا تراه، فترثيه رثاءً حارّاً وما تزال تذهب وتجئ وما تزال حائرة، والدموع في عينها ولسانها ينوح، ويموت أبوها فتبكيه، وتتحول حياتها إلى مأتم متكرّر تبكي فيها وتنتحب[4].

ونجد الخنساء هي ثانية لشعراء المراثي الأربعة المتقدمين، والبحتريّ في حماسته أفرد الباب الأخير لما اختاره من شعرّ الرثاء قصيدة على (مختار أشعار لجماعة من النّساء في المراثي) وجاءت فيه أبيات لعشر مرثيّات من كلّ هذا نجد أنّ إظهار الحزن لم يكن يناسب الرّجال، بل يناسب النّساء. أمّا شعر الرّجال فالمرأة كما رأينا ـ منزلته عالية فيه فقد اتّخذت موضوعاً لقصائد مطوّلة رائعة، واحتلّت مطالع كثيرة من هذه القصائد، فكانت إذن، هدفاً لقسمٍ كبير من أناشيدهم، وهذا راجعٌ بالطّبع إلى منزلتها في نفوسهم، وأمّا شعر النّساء فأوّل فنونه وأهمّها فنّ الرثاء حتى أنه تكاد ولا توجد شاعرة الا وقالت فيه بيتا أو أكثر، أما

[1] – خناس: الخنساء ، مقتار: ضيّقة.
[2] – رابه الدّهر: رأت منه ما يسوؤها، العلم: الجبل.
[3] – الاصغار بالحنين: خفض العيون به.
[4] – شوقي ضيف: الرّثاء، ص ١١٦ – ١١٩.

الموضعات الأخرى التى نظمت فيها أغلب الموضوعات الشعرية المدح والهجاء والتضحية وإثارة الحماس القبلي والوصف ولكنّ هذه الفنون بجملتها تكاد تكون كلّها ممّا يتّصل بالرّثاء عن قرب أو بعد، كمدح الشجاعة الّتي يبديها في حياته وكالثّناء على كرمه أو الفخر بانتصاراته الحربيّة كاللّوم والعتاب على تسلّم صديق لأعدائه أو خذلان في حرب[١].

وكالإشادة على حربٍ للأخذ بالثأر عن قتيل[٢] أو النهي عن الأخذ بديّة[٣] أو اللّوم أو العتاب على قتل[٤] أمّا يتعلّق بشيء من هذا فهو قليل بالقياس إلى ما أنشدته في مراثيهن وهو متفرّق في كتب الأدب والتّاريخ[٥].

فالرّثاء والنواح وما يتّصل إذاً هو فنّ النساء الشعري في العصر الجاهليّ؛ لأنّهما يصدران عن الحزن. والمرأة أكثر مطاوعة للأحزن وأشدّ انصياعاً لتأثير العواطف واستجابة لها، ثمّ إنّ هذا الرّثاء نفسه إذا استعرضناه وجدنا المرأة قد خصصته بجملته للرّثاء الرجال، مع ذلك نجد فيه شيئاً يتعلق المرأة ويصوّر بعض نواحي حياتها. إنّنا نجد في رثائهن وشعرهن عامّةً تصويراً لمناجاة النّساء الباكيات، هذا إلى أنّ الشّاعرة تتعرّض لتصوير أحزانها وآلامها[٦].

وهذه هي صورة من صور المرأة التى نستفيدها من هذا البحث أنّنا لا ننسى وما نستشفه من رثائها للرّجل في معرفة ميولها ورغباتها، فهي برثائها إنّما تترجم في الواقع عن عواطفها، وذوقها، وأمانيها، وآمالها، وخيالتها، فتترجم عن كلّ هذا بما ترسمه في رثائها في صور أدبية فنيّة تفيدنا هى الأخرى في لمس قدرتها ومعرفة ذوقها الفنيّ.

فالمرأة في شعر الرّجال تكون ـ إذاً ـ موضوعاً شعريّاً يقصد إليه مباشرة في حين أنّها في شعر الشاعرات، فيدرك القارئ أسلوبها الفنيّ من أشعارها، ويعرف رغباتها وذوقها من اختيارها للمعاني التى توردها، والأوصاف التى تختارها في سلوك الرجال والروح التى تعزيها

---

[١] – حماسة أبى تمام، ١/ ٣٦. الدرّ المنثور، ص ٥٤٥.

[٢] – الدرّ المنثور، ص ٦١ – ٦٤. ورياض الأدب، ص ٦٠.

[٣] – حماسة أبي تمّام، ١/ ٥٤.

[٤] – الدرّ المنثور، ص ١٣٥. ورياض الأدب، ص ٩ – ١٤.

[٥] – الأغان، ١٣/ ١٣٦. حماسة أبي تمّام، ١/ ٢٢٧ – ٢٢٨.

[٦] – رياض الأدب، ص ٩٠ – ٩٢. وأنيس الجلساء، ص ٢٨ – ٣٣ ٦٢ – ٧٤ – ٩٥.

في تصوريهم. وبهذا يتسنى للباحث أن يتصورها من وراء هذه العناصر الفنية لأنّ الشعر ذاته إنّما هو ظاهرة نفسية، فإذا صدر من قلب المرأة حمل إلينا غير عواطفها ونشر أحاسيسها، فصوّر لنا ذوقها وتفكيرها وما يكنّ في صدرها من آمال، ويجول في مخيلتها من صور.

والمرأة ـ شأنها شأن الإنسان ـ ترغب في المعاني والصّفات الّتي تكمل بها أنوثتها، فهي تشعر بأنّها بحاجة إليها فتمتدحها لهذا السبب أينما ما وجدتها، وفي شعر النساء معانٍ غير الرّثاء أو الوصف لأحزانهن؛ فهناك وصف للأسيرات السبايا[١] وهذا ما نجده في شعر الرّجال أيضاً. كما نجد شعرهنّ كذلك حثّاً على الأخذ بالثّأر[٢] ووصفاً للمعوزات والأرامل كيف يصعب عليهنّ القيام بوأد أولادهنّ وهذا عندما كانت الشّواعر تتعرّض للقتيل وتمتدح كرمه وإحسانه[٣].

كما صوّرت النّساء أنفسهن عند إظهار رغباتهنّ في طلب الحماية والكفاية من الرجل[٤] وممّا يتعلّق بهن جاء في شعر شواعر العرب في الجاهلية يصور المرأة في ذلك العهد وهو قليل بالقياس إلى ما في شعر الرّجال.

ومن خصائص صور النّساء الفنيّة في الجاهليّة كان النّساء يجتمعنَ في مناحة صاخبة، يصحب ذلك لطم على الوجوه والصّدور بالأكفّ أو قطع الجلود أو النّعال، ويعرف هذا الضّرب من الشّعر: المناحات بالندب، وقد برعت النّساء في هذا الضّرب. وكان يصاحب هذا الفن في النواح الضرب بالصنوج والنقر بالدفوف لزيادة هذا الجوّ حزناً وأسًى وفجيعة، والربيع بن زياد يصف لنا أحد المناحات الّتي أُقيمت إثر مقتل مالك بن زهير، فقال[٥]:

مَنْ كانَ مَسْروراً بمقتلِ مالِكٍ فليأتِ ساحتنَا بوجهِ نهارِ

---

[١] – رياض الأدب، ص ٧٨. أنيس الجلساء، ص ١٢٢.

[٢] – رياض الأدب، ص ٢٩.

[٣] – رياض الأدب، ص ٨٣. ديوان الخنساء، ص٢.

[٤] – رياض الأدب، ص ٦٦.

[٥] – المرزوقيّ: شرح الحماسة، ٢/ ص ٩٩٥ – ٩٩٦. وكذلك وصوف مهلل بن ربيعة مناحة عن مقتل كليب ينظر: الشّعراء النصرانيّة، ١/ ١٦٢. ولبيد بن ربيعة في حوت عمه أبي براء ، ديوان لبيد، ص٥١–٣٣٢.

يجدُ النّساء حواساً ينْدُبنه يلطُمن أوجههنّ بالأسحار
قد كنّ يخبأنَ الوجوه تستُّراً فاليومَ قد أُبْرِزْنَ للنُّظَّارِ
يضرِبنَ حُرَّ وجوهِهِنَّ على فتًى عفّ الشّمائلِ طيّبِ الأخبارِ

وقد وصف أبو ذؤيب الهذليّ ما تفعله بناته بعد موته من ضرب صدورهنّ بنعال السّبت فقال[١]:

وقامَ بناتي بالنَعالِ حواساً وألصقنَ ضربَ السبتِ تحتَ القلائدِ

كلّ هذا يوضّح لنا الصّورة الفنيّة للنائحة في الجاهليةّ وما تفعله من لطمٍ على الوجوه وضربٍ بالصنوج ونقرٍ بالدّفوف، فهذه هي كلّ الخصائص الفنيّة للنّائحة في العصر الجاهليّ.

وأيضاً تقول الخنساء في وصفها للنّساء النّادبات وبكاؤهنّ في المآتم والأحزان على نحو ما نجد عند المهلّل[٢] والرّبيع بن زياد[٣] وتقول الخنساء:

فَنِساؤنا يندبنَ نوحاً بَعْدَ هَادِيةِ النَّوَائِح
شَعِثَتْ شواحِبَ لا يَنينَ إذا وَنَى لَيْلُ النّوائِح
يَحْنُنَّ بَعدَ كَرَى العُيُونِ حَنينَ والهةٍ[٤]* قَوَامِح
يَنْدُبْنَ فَقْدَ أخي النَّدى والخيرِ والشِّيَمِ الصّوالِح
والجُودِ والأيدي الطّوالِ المُستفيضاتِ السّوامِح[٥]

هذه الأبيات تصوّر لنا الخنساء في صورة النائحة في بكائها على الميّت لا تهدأ وهن مقبرات وشاحبات من شدّة الحزن، حتّى إذا جنّ اللّيل فهنّ لا يسكتن عن النّواح، وهنّ يصفن

---

١ – ديوان الهذليّين، ١/ ١٢٢.
٢ – المهلّل – شعراء النّصرانيّة، ص ١٦٢. المرضاة في جاهليّتها وإسلامها، ١/ ١١٤.
٣ – حماسة أبي تمّام، ١/ ٢٩٨ – ٢٩٩. المرأة في جاهليّتها وإسلامها، ص ١٢٢.
٤ – الوالهة على أولادها: القمحة: التّي لا تضع بمرتع ولا ماء ببلدة.
٥ – أنيس الجلساء، ص ٢٨ – ٣٠. يعدّ هادئه النوائح بعد هدوء النّوائح ونومهنّ إذا ونى إلخ.. لايفترن إذا اقرن النّواح.

حزنهنّ على فقدهنّ الذي يشتهر بالجود وكرمه على الضعفاء فهنّ لا يفترن حتّى بعد هدوء النّائحات.

وقد ذكرت كثيرات منهن بكاءهن فيما صوّرته من أحزانهنّ[١] ذلك لأنّ البكاء بما اختصّت به النّساء على مرّ العصور؛ ولهذا كثر الرّثاء في أشعارهنّ حتّى طغى على سائر الفنون الأخرى فيها، فالنّساء أشجى النّاس قلوباً عن المصيبة وأشدهنّ جزعاً على هالك لما ركّب الله في طبعهنّ الخور وضعف العزيمة على شدّة الجزع بين الرّثاء[٢]. لذلك نجد تصويراً بارعاً لأحزانهنّ ورثائهنّ في عقولهنّ وأبدانهنّ فقد أطالت وأبدعت كثيرات منهنّ، وتعدّ الخنساء من أقدارهنّ وصفاً وتعبيراً عن عميق أحزانها وهى الشّاعرة الوحيدة الّتي ذكرها ابن سلاّم في طبقاته في الشّعراء الجاهليّين[٣] وقال الشرتيسي في شرح المقامات الحريرّية عنها: (أجمع علماء الشّعراء أنّه لم تك قطّ امرأة قبل الخنساء ولا بعدها أشعر منها)[٤]. ذلك لأنّ الخنساء وقفت على التّرجمة عن عميق أحزانها وبالغ أثرها في قصائد مشهورة وبخاصة ما قالته في أخيها صخر، حتّى أنّ الباحث ليحار فيما يختاره منها لهذه الجودة الغالبة فتقول:

قذًى بعينكِ أم بالعينِ عوّارُ أم أقفرتْ إذْ خَلَتْ مِنْ أهلِها الدّارُ

ومن قصائد الخنساء في فنّ الرّثاء والنواح كثيرة إذ نجدها تقول في رثاء أخيها صخر:

لا تَخَلْ أنّني لقيتُ رواحاً بعد صخرٍ حتّى أَثْبْنَ نُوَاحا
من ضَميري بلَوعَةِ الحزنِ حتّى نكأَ الحزنُ في فُؤادي فِقَاحا
لا تَخَلْني أنّي نسيتُ ولا بُلَّ فُؤادي ولو شَرِبْتُ القَراحا
ذكرَ صَخْرٍ إذا ذَكَرتُ نَداهُ عِيلَ صَبْري بِرِزْئِهِ ثمّ باحا[٥]

---

[١] – ابن سلاّم: طبقات ابن سلاّم، ١/ ٤٨.

[٢] – ابن رشيق القيروانيّ: العمدة، ٢/ ١٤٥ – ١٤٦.

[٣] – طبقات ابن سلام، ص ٤٨.

[٤] – الشرتسي: شرح المقامات الحريريّة، ٢/ ١٥٣.

[٥] – الخنساء: أنيس الجلساء، ص ٧٣ – ٧٥ – ٧٦ – ٧٩. والمبرّد: الكامل، ٢/ ٣٣٧.

يوضّح لنا هذا الفن الرثائّي الحزن العميق الّذي أسلمها إلى الضّنى وهلك فؤادها وضميرها بلوعة وحرقة شديدة على أخيها صخر، وهى لا تستطيع الصبر عليه كلّما تذكره تنوح عليه بشدّة. وأيضاً هي تصوّر لنا حزناً بليغاً موجعاً كأنّه أحدث في فؤادها جرحاً لا يرقى دمه وقد تفنّنت الخنساء في وصف أحزانها على أخويها صخر ومعاوية[١] وأظهرت عاطفتها ورقّة شعورها بصدقٍ، وّرقة شعورها استطاعت أن تجعل السّامع يشاركها أحزانها، وتصل إليه من التّعبير عن الشّعور النّفسيّ وهي تمتاز كذلك بالقدرة على الإطالة في وصف خلجات نفسها فتظهر ما فيها من المعاني الدّقيقة تصوّر آثارها في عقلها وجسمها[٢].

والشّاعرات اللائي برزن في وصف أحزانهن كثيرات إلاّ أنّهنّ في الغالب لا يبلغنّ ما بلغته الخنساء، كما أنّهن لا يطلن في وصف مشاعرهن، ولعل ممّن برزن منهن صفية بنت عمرو بن نفيل[٣] وتاجيّة بنت ضمضم وقد رثت أخاها صرما[٤] ومن أشهر هؤلاء الخرنق أخت طرفة بن العبد الشاعر المشهور:

أعاذلتي على رزءٍ أفيقي فقد أشرقتِني[٥] بالعذل ريقي
ألا أقسمت أسى بعد بشر على حيّ يموت ولا صديق[٦]

ومن هذا، فاللّون يبعد من شعرها وشعر الخنساء من حين قوة التعبير عن الحزن وهذا اللون يكون أبعد شقّة بطبيعة الحال بين شعر الخنساء وشعر الشواعر الأخريات اللائي تعرّضن لوصف أحزانهنّ؛ إذ أنّهن لم يكن لهنّ القدرة على وصف خلجات النّفس والتّعبير عن عواطفهنّ العميقة ما كان لزعمية النّساء الشاعرة الموهوبة في هذا الميدان، ومع هذا فإنهنّ يختلفنَ في القدرة الفنيّة بعضهنّ عن بعض

---

[١] – الأغاني: ١٣/ ١٣٧ – ١٣٨. والمبرّد: الكامل، ص ٧٤٠ – ٧٤٥ . وأنيس الجلساء، ١٥٢ – ٢٨ – ٦٧. والدّرّ المنثور، ١١٢ – ١١٣.

[٢] – حماسة أبي تمّام، ١/ ٢٨٤ – ٢٨٥. والدّرّ المنثور، ٥١٨.

[٣] – المصدر السابق، ص ٣٣٣– ٣٣٤.

[٤] – الدرّ المنثور، ص ٥١٨.

[٥] – أشرقتي: أغصصتني.

[٦] – خزانة الأدب، ٢/ ٣٠٧. ومعجم البلدان، ٤/ ١٥٥. رياض الأدب، ٣٥.عون بشر: الشّاعرات، ص ٨.

الفصل الثّالث
الرثاء في صدر الإسلام وعهد بني أميّة

المبحث الأوّل: أثر الإسلام في التّحول الاجتماعيّ للمرأة

المبحث الثّاني: دور المرأة في الحروب الإسلامية

المبحث الثّالث: رثاء النساء لشهداء الاسلام

المبحث الرّابع: المعاني المستحدثة في رثاء النساء

المبحث الخامس: الخصائص الفنية في شعر الرثاء عند المرأة الاسلامية

لا يختلف صدر الإسلام في فنّ الرّثاء عن العصر الجاهليّ في ألفاظه ولا أساليبه إلاّ في تغيّر النّظرة للميّت؛ إذ أحدث الإسلام انقلاباً خطيراً في حياة النّاس، وقد أصبح النّاس مسلمين ملتزمين بالإسلام واعتقاداً بالدّين الجديد، وإيماناً بالقضاء والقدر، وتصديقاً لآيات الذّكر الحكيم في رثاء الأموات.

ويعدّ صدر الإسلام أفضل العصور الإسلاميّة قاطبة؛ لأنّ الصّحابة عاصروا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم واقتدوا به في أمور حياتهم، يقول الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في ذلك: (خير القرون قرني ثمّ الّذين يلونهم ثمّ الذين يلونهم)، فلم نعد نسمع في رثاء الأموات إلاّ التّعابير الإسلاميّة، وانتهت آثار الشّرك في الرّثاء الذي ألفناه في العصر الجاهلي، وصبغت المفاهيم الإسلامية صور الرثاء صبغة تكاد تكون عامّة، وسأعطي بعض النّماذج الحيّة من صور الرّثاء للرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ولأصحابه الكرام وبعض الشخصيّات الأخرى في صدر الإسلام.

ومثل رثاء الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ورثاء الخلفاء الراشدين. فمثل هذا الرثاء الصالح للاستشهاد به على نبل الشعور في كل عصر ومصر. وبعد، فإنّ الرّثاء في العصر الأمويّ لا يختلف عن الرّثاء في صدر الإسلام إذ نجد تقارباً كبيراً في الأسلوب والمعانى وتأسّي النّاس بالصبر لتأثّرهم بالإسلام الّذي ما يزال غضّاً طريّاً في الصدور؛ وذلك لقرب العهد بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم وصحابته وحياة كثير من الصحابة إلى عهد بنى أميّة[1].

[1] – سيرة ابن هشام، ٤/ ٢٢٩ – ٢٣٠.

المبحث الأوّل

أثر الإسلام في التّحوّل الاجتماعيّ للمرأة

الإسلام نظم حقوق المرأة ورعاها حقّ رعاية؛ إذ كانت مهضومة الحقوق في الجاهلية، فردّ إليها حقوقها، وجعلها كفؤاً للرّجل لها ما له من الحقوق. يقول تبارك وتعالى: (ولهنّ مثل الّذي عليهنّ بالمعروف)[1] وأيضاً لهنّ مثل ما للرّجال من السعي في الارض والعمل في التجارة؛ يقول عزّ شأنه: (للرّجال نصيب ممّا اكتسبوا وللنساء نصيب ممّا اكتسبْن)[2] وكان في الجاهليّة قبل مجيء الإسلام كان كثير من غلاظ القلوب يئدون بناتهم خشية العار، فبمجئ الإسلام حرم ذلك يقول جلّ ذكره: (وإذا بُشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودّاً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به أيمسكه على هون أم يدسّه في التّراب ألا ساء ما يحكمون)[3]. (ومن آياته أن خلق من أنفسكم أزوجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة)[4]

ودعا في غير آيةٍ إلى معاملة الزوجات بالمعروف، ويقول الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في خطبة حجة الوداع: (أيّها النّاس! إنّ لنسائكم عليكم حقّاً، ولكم عليهنّ حقّاً. لكم عليهنّ ألاّ يوطئن فرشكم غيركم، وألاّ يُدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلاّ بإذنكم، ولايأتين بفاحشة مبيّنة، فإن فعلنَ فإنَّ الله قد أذن لكم أن تعضلوهنّ وتهجروهنّ في المضاجع وتضربوهنّ ضرباً غير مبرح، فإذا انتهينَ وأطعنكم فعليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، وإنّما النّساء

---

[1] – سورة البقرة، الآية ٢٢٨.

[2] – سورة النّساء، الآية ٣٢.

[3] – سورة النّحل، الآية ٥٨. والزّخرف، الآية ١٧.

[4] – سورة الرّوم، الآية ٢١.

عندكم عوان (أسيرات) لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً، اخذتموهنّ بأمانة الله، فاتّقوا الله في النّساء واستوصوا بهنّ خيراً).

من هذه الآيات نرى أنّ الإسلام ينهي عن هجر المرأة وضربها ضرباً مؤلماً، وقد حدّد رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف والحسنة، ونهى عن أسرهنّ، وأباح للمرأة حريّتها، ويوصي الإسلام الرجل أن يستوصى بالمرأة خيرا ولا يهملها ولا يهجرها. وكل هذا بفضل تعاليم الإسلام السّمحة؛ لأنّ الإسلام يعزّ المرأة، وينيلها نصيباً ثابتاً في الميزان لم يكن محددّاً لها في الجاهليّة.

ولا شكّ أنّ المرأة تبوّأت هذه المنزلة وكانت خليقة بها، وأيضاً حرر الإسلام المرأة إذ نهى عن احتقارها، وجعل لها الحق في أن تختار زوجها، والحريّة في العودة إلى ذويهنّ إن أساء الأزواج معاملتهنّ، وكنّ أحياناً يزوّجن أنفسهنّ، كما بات لهنّ حق الطّلاق. وقد جعل الإسلام المرأة غير حرة عبر إماء أو سريات، وإنما كنّ أنداداً للرّجال ورفيقات، وكنّ يلهمن الشعراء وينشدن للمحاربين ليقاتلوا[1].

ومن أثر الإسلام على المرأة أنّه قد أباح لها أن تختار زوجها، ولها الشّورى في ذلك أن تريد أو ترفض من تريد زواجه. وأيضاً نشطت نشاطاً في ظل الإسلام الحنيف إذ نجدها روت الأحاديث وكان عضواً فعالاً في نشر رسالة الإسلام السمحة وأحكام الدين ورفع منار السنة الغراء.

فروت الحديث عن النبي صلّى الله عليه وسلّم كالسيدة عائشة رضي الله عنها لقد كانت عاملاً كبيراً ذا تأثير عميق في نشر تعاليم الرسول صلّى الله عليه وسلّم، والتفاني في إعلاء كلمة الله لتخفق رايته على الخافقين.

وبتعاليم الإسلام نجد المرأة شاركت في كثير من الأمور السياسية والخطابية والأدبيّة. كلّ ذلك جعلهنّ يقتحمن هذا الميدان الجديد[2].

وأيضا بفضل الإسلام حدد المرأة عزّتها، وجعل لها حقاً ونصيباً معروفاً. ولا شك أن المرأة التي تبوّأت هذه المنزلة جديرة بأن تبعث وتوقد في نفوس ذويها الغيرة عليها والحماية

---

[1] – أحمد زكي: المرأة في العصور، ط (١)، د ت، د ن، ص ٦٢ – ٦٤.

[2] – محمّد بدري معبدي: النساء في الجاهلية والإسلام، ط (١)، ص ١٣٥

لها من الضيم. فقد أباح لها الطلاق ولكنّه جعله أبغض الحلال إلى الله ويقول جل شأنه: (فإن كرهتموهنّ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً)[١].

(وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفّق الله بينهما)[٢].

فقد أوجب الإسلام كثيراً من الحقوق التي حين تفهم العلاقة بينها وبين زوجها، ومن ذلك أن يسرّحها بإحسان وأن لا يمسك عنها شيئاً من صداقها، يقول عزّ وجل: (وإن أردتم استبدال زوجٍ مكان زوجٍ وآتيتم إحداهنّ قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذوه بهتاناً وإثماً مبيناً)[٣] (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذنَ منكم ميثاقاً غليظا)[٤].

وبكل ذلك نجد الإسلام قد كفل للمرأة حقوقها، وأوجب أن يرعاها وأن يقوم بها خير قيام، ومن غير شكّ أنّه ليس هناك علاقة بين الإسلام ونظام الحريم الذي شاع في العصر العباسي، فالإسلام يجلّ المرأة ويرفع من قدرها، حتى لنراها في العصر الأول من العصر الإسلاميّ شاركت في الأحداث السياسيّة على نحو ما هو معروف عن موقف السيدة عائشة أمّ المؤمنين في حروب عليّ وطلحة والزبير، وكانت تشارك برأيها وبرجاحة عقلها ولها كلمة سامية ومسموعة، وكانت هي نفسها مصدراً كبيراً من مصادر الحديث النبويّ وهدي الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم. وكلّ هذا بفضل الإسلام الذي رفع شأن المرأة اجتماعيّاً وعقليّاً وروحيّاً، وهيأ لها حياة اجتماعيّةً عادلة، حياة تقوم على الخير والبرّ والتّعاون بينها وبين الرّجل في الأسرة الصالحة. والمرأة قد أوصى عليها الرسول صلّى الله عليه وسلّم في الحروب بأن لا يقتلوا شيخاً ولا طفلاً ولا امرأةً[٥].

---

[١] – سورة النّساء، الآية ١٩.

[٢] – سورة النّساء، الآية ٣٩.

[٣] – سورة النساء، الآية ٢٠.

[٤] – سورة النّساء، الآية ٢١.

[٥] – ابن هشام: السّيرة النبويّة، ص ٦٧.

المبحث الثاني

دور المرأة في الحروب الإسلاميّة

كان للنّساء دور هامّ في مساعدة الرجال في السلم ووقت الحرب بكلّ ما أوتين من قوة وذكاء، وعليهنّ أن يخلصن لقبائلهنّ ويسعين للمحافظة على سلامتها وشرفها.

والشّعر يصوّر لنا المرأة مشاركةً للرّجل في الحروب ولها دور هام إلى حدٍّ ما، فقد تثيرها وتكتوى بنارها ولظاها وأهوالها. ونجد في شعر النساء صرخات مدوية ودعوات ساخنة للحرب بأسلوبهنّ المؤثّر الذي لا يسكت عليه الرّجل وإن كان حليماً عزيز العقل، ومن هذا قول ابنة الحصين ترثي أباها وتحرض قومها على الحرب فتقول:

فإن أنتمُ لم تصحبوا القوم غاره ... يحدث عنها وارد بعدها هادر
فترموا عقيلاً بالّتي ليس بعدها ... بقاء فكونوا كالإماء العوائر[1]

قد أظهرنَ براعة فائقة في التأثير على قلوب الرجال يدفعونهنّ للحرب وأخذ الثّأر، وكلّ ذلك من أجل حبّهن وإخلاصهنّ للحرب.

وللمرأة دور هام في تحريض القوم للأخذ بالثأر وإشعال الحروب وعدم أخذ الديّة ومن هذا قول أم غرافة تخاطبة زوجها حذيفة وقد قبل الدية عن ابنها فتقول:

حذيفة لا سلمتَ من الأعادي ... ولا وقيت شرّ النّائباتِ
بقتل غرفة قيس وترضى ... بأنعامٍ ونوقٍ سارحات تكون

[1] – العوائر: النساء العفيفات.

فذاك أحبّ من بعلٍ جبانٍ حياته أردى الحياة[١]

ولو تتبّعنا واستعرضنا حروب الجاهلية الهامة التى وصلت إلينا أخبارها أو أردنا بنصيحة نابليون العظيم حيث قال: (فتّش عن المرأة) لتبين لنا أنّ المرأة كانت سبباً في إشتعال كثير من الحروب. فكانت بنت النعمان ملك الحيرة من حملة حرب ذى قار[٢]. فالحرب كان طابع المرأة فيها سعيراً وذلك لانتهائها بانتصار العرب الحربيّ والسّياسيّ[٣].

وتلك كانت صرخة عمرة بنت الحباب الثعلبية[٤] وصرخة ليلي بنت المهلل أمّ عمرو بن كلثوم[٥]. سبباً لحروب عدنان وقحطان. أمّا حرب البسوس فقد ذكروا أنّ هذه المرأة قد أشعلتها بعتابها[٦].

وكانت حرب الفجّار كذلك قد أثارتها امرأة، فقد رُوِي أنّ فتاة حسناء تعرّض لها بعض الشبّان الماجنين في كنانة، فسألوها أن تسفر وألحّوا عليها في المسألة[٧]. وكانت غادةً فانتة ذات جمال ساحر محسن رائع، فما رفعت صوتها بـ (يالعمر) حتّى ثارت الحرب بين عامر وهوازن وقريش وكنانة. وقد صوّر عمرو بن كلثوم في معلّقته كيف كانت نساؤهم تقول لهم وهم مقدمون على الحرب: (لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا) أمّا دعواتهن فكثيرة[٨].

فقد دعت ريحانة إلى ان يأخذ بثار أخيها[٩] كما أسفرت كبشة أختها أهلها للأخذ بثأر أخيها الذي قتلة بنو مازن، فجعلت كلامها على لسان القتيل ليبلغ أعمق الأثر في النفوس فقالت:

---

١ – رياض الأدب في مراثي شواعر العرب، ص ٣٩ – ٤٠.

٢ – الأصفهانيّ: الأغاني، ٢/ ٢٩ – ٣١.

٣ – فقد صور البديل العجلي النسوة التي بعثتها هذه الحرب المرأة المدنية العفيفة، ١/ ١٢٦.

٤ – المصدر نفسه، ١/ ٦٦.

٥ – الأغاني، ٩/ ١٧٥ – ١٧٦.

٦ – العقد الفريد، ٣/ ٣٤٧ – ٣٤٨.

٧ – المصدر نفسه، ٣/ ١٠٩

٨ – أبو تمّام: الحماسة، ص ٤٢٢ – ٤٢٣. والأصفهاني: الأغاني، ٤/ ١٤١ – ١٤٢. ابن الأثير، ١/ ٣٨٥.

٩ – الأغاني، ٩/ ٧. وشعراء النصرانية، ص ٧٦١.

فأرسل عبد الله إذ حان يومه إلى قومه لا تعلقوا لهم دمي
فإن أنتمُ لم تثأروا واتديتم فمشوا بآذات النعام المعلم
ولا تردوا إلاّ فضول نسائكم إذا أرثمت أعقابهنّ من الدّم[1]

نجد من هذا الشعر أثر عميق في نفوس السامعين؛ لأنّها تحثّهم على الحرب والقتال وأخذ الثار.

وللمرأة دور هام في تحميس المقاتلين، ومن هذا قول المهلل وهو أول الحرب يتوقع ظهور المخدرات لتدعوا المقاتلين للاستبسال فنجده يسأل صاحبه ليقرب حصانه استعداداً للمعركة لقوله:

قربا مربط المشهر منى سوف تبدوا لنا ذوات الحجال[2]

وكانت العادة عندهم أن يركب عدد من البنات على الجمال ليغنين ويصرخن بالمحاربين عندما تشتد الحرب[3]. وقد رُوِيَ أنّ الخوفران وقومه لقبهم بنى منقر وعلى رأسهم قيس بن عاصم فاقتتلوا أشدّ قتال ونادت النساء بنى ربيع (ياآل سعد) فاشتد قتال منقر بصياحهن فهربت بكر وخلوا ما فى أيديهم من الأموال[4] وكان تعرضهن للخطر يبعث في نفوس المحاربين روح الشجاعة والاستبسال[5] وبهذا ضرب حنظلة ابن ثعلبة في ذي ثأر فيه وسط المعركة مجمع حولها النساء فاشتدّ قتال العرب وقد وقفت أمام الجيش الفارس حاسرات عنهن الحجب صارخات الفرسان باذلات لجمالهن الناعم الرحض فقد ألهاهنّ الرعب والذعر عن الخجل والتستر وقد وصفهن الأعشى وهن في أول هذه الحرب بقوله:

---

[1] – زينب فوّاز: الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور، ص ٤٥٨.

[2] – النقائض، ص ٩٠٥.

[3] – المرجع نفسه، ص ٦٤١.

[4] – عفيف: المرأة في الجاهلية وإسلامها، ١/

[5] – Esern giden odes. P.. 12

لما أتوا كان الليل يقدمهم مطبق الأرض يغشاها بهم سرفوا
حواسر عن خدود عاينت عبرا عواهها ووقاها طينها الصدف[١]

وفضلاً عن ذلك فالعربيّات كنّ يحاربن إذا اقتضت الضرورة بشجاعة الرّجال كما حدث في واقعة أحد، وقد وصف حجدر بن ضبيعة اشتراكهنّ الفعليّ في أعمال القتال[٢].

وأيضاً نجد المرأة الخارجيّة شاركت في الحروب الإسلاميّة وكان لها دور كبير، فمن هؤلاء نجد عميرة زوج مجاشع البكيّ،ى فقد حوّلها رجل إلى رأى الخوارج فدعت زوجها لذلك فأبى وأبت إلاّ أن تخرج فكتب إليها زوجها قائلاً[٣]:

وجداً يصاحبني لعلّ صبابة منها تردّ حليلةً لخليل
فلن قتلت ليقتلن قتيلكم فتيقّني أنّي قتيل قتيل

فردت عميرة تجيبه قائلة[٤]:

أبلغ مجاشع إنْ رجعت فإنّني بين الأسنّة والسيوف مقيلي
أرجو السّعادة لا أحدّث ساعة نفس إذا ناجيتها بغفول
ووهبت خدرى والفراش لكاعب في الحي ذات ومالج وحجول

فعميرة تترك زوجها لعدم استجابته لدعواها لاعتناق مذهب الخوارج، وتترك بيتها ومأواها مستبدلة به مأوًى آخر بين أسنّة الرّماح ودور السيوف في ساحات الوغي، وكل ذلك من أجل الحصول على السعادة الأبديّة.

---

[١] – العقد الفريد، ٣/

[٢] – ديوان الأعشى، القصيدة رقم ٦٢. والأغاني، ٢٠/ ١٤٠.

[٣] – طرفة بن العبد: ديوانه، ص ٢٧. وشرح الأعلام شعراء النصرانيّة، ص ٣١٣.

[٤] – ابن طيفور: بلاغات النّساء، ص ١٠٦.

وهناك قصص تدل على مقاتلتهن كقصّة عامر بن الطفيل[١] وكان قتالهنّ أحياناً بشراسة وعنف[٢]. وكان البدو يخرجون نساءهم معهم الى الحرب فينشدونهم أغانيهنّ الحربيّة، وهذه الأغاني يُظنّ أنّ أصلها كان دينياً؛ لأنّ العرب كانوا مثل سائر الأمم وقد تحول هذا الغناء الدينيّ إلى غناء حربيّ[٣].

ولم يكن شيء يثير لحماسه الرجال مثل غناء النساء وإذا لم تشترك النساء بالأعمال الفعليّة في الحرب فقد كنّ يقمن بالأعمال الثانوية فيقدمن للمحاربين الماء والزاد والسلاح، ويرقبن الجوانب لئلاّ يباغتهم العدوّ. ومن أهم أعمالهن تضميد الجراح كما كانت تفعل رفيدة صاحبة المستشفى الحربي كانت لها خيمة لمعالجة جراح المحاربين ولها دور هام في ذلك المجال العريق[٤]. فمنهنّ أيضا الطبيبات بالوراثة[٥] قال قيس بن الحطيم:

طعنت إبن عبد القيس طعنة سائر لها منفذ لو الشعاع أضاءها
يهون علي أن ترد جراحها عيون الأواسي[٦] إذا جهدت بلاءها

فالمرأة التى تداوى عواطف الرجال وتوحي إليهم شتى المعانى والفكر، كانت تداوي جراحهم. وقال دراج وكان قد طعن يخاطب زوجته أم كهيعس:

شدى على العصب أم كهيعس ولا تهلك وأرؤس

ويرجع سر مهارة النساء في الطب إلى تنقلهن مع الرجال في الحروب وبين المتخاصمين واعتنائهم بشؤون الأطفال الأمر الذي جعلهن يعرفن الحالات المرضية وفقههن في طبيعة الظواهر والتغيرات التى تصيب الإنسان.[٧]

---

١ – ابن الأثير، ١/ ٤٨٢.
٢ – Fisn & Hovtt: Kamil aris & kwnari , p 133
٣ – البستانيّ: النساء العربيّات، ص ٤١.
٤ – الميدانيّ: مجمع الأمثال، ١/ ١٩٥.
٥ – Nichol son: Aliteraryhst – Oethearab p 151 p 60
٦ – الاواسي: النساء الطبيبات.
٧ – أبو تمّام: الحماسة، ١/ ٤٤.

وعلى العموم، فإنّ جميع الأعمال الخاصة بحياة الحروب ورخاء الإنسانية كانت حينا من الدهر وفي جذور التاريخ الإنسانيّ من أعمال الحقل النسائيّ[1].

وتقول أيضاً الأخيليّة في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنه:[2]

أبعد عثمان ترجو الخير أمته ... وكان آمن من يمشي على ساق
خليفة الله أعطاهم وخوّلهم ... ما كان من ذهب جم واراق
فلا تكذب بوعد الله وارض له ... ولا توكل على شيء بإشفاق
ولا تقولن لشيءٍ سوف أفعله ... قد قدّر الله ما كلّ امرئٍ لاقِ

فإنّ الشاعرة ليلي هنا تستبعد الهدوء والاطمئنان بعد مقتل خليفة المسلمين زوراً.

وأيضاً أم الهيثم ترثي عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه فهي تقول:[3]

ألا يـــاعْين ويحـــك فاســـعدينا ... ألا تبكي أمير المؤمنينا
رزئنـــا خيـــر مـــن ركـــب المطايـــا ... وخيسها من ركبْ السفينا
ومـــن لـــبس النعـــال ومـــن حـــذاها ... ومن قرأ المثاني والمئينا
وكنـــا قبـــل مقتلـــه بخيـــرٍ ... نرى مولى رسول الله فينا
يُقـــيم الـــدّين لا يرتـــابُ فيـــه ... ويقضي بالفرائض مستبينا
ويـــدعو للجماعـــة مـــن عصـــاه ... وينهك قطع أيدى السارقينا
ولـــيس بكـــاتم علمـــاً لديـــه ... ولم يخلق من المتجبرينا
لعمـــرُ أبـــي لقـــد أصـــحاب مصـــر ... على طول الصحابة أوجعونا
وغشّـــونا بـــأنّهم عكـــوفٌ ... وليس كذاك فعل العاكفينا
أفـــي شـــهر الصّـــيام فجمعتمونـــا ... بخير الناس طرّاً أجمعينا

---

[1]- المصدر نفسه.

[2]- المبرّد: الكامل في الأدب، ٢/ ٣٨.

[3]- اختلف الرواة في ترتيب هذه الأبيات كما اختلفوا في نسبتها وقد نسيها المؤمنين في كتاب الاغاني ١٢٢/١١ لابي الأسود الدؤلي وهي منسوبة له في الطبري ٨٧/٦ وابن الاثير ١٧١/٣ وهذه الأبيات موجودة في مقتائل الطالبين، ص ٤٤.

فالراثية هنا تطلب من عيونها الإسعاد بالبكاء على أمير المؤمنين الذي اغتاله المجرم ابن ملجم ثم تعدّد مأثره وتأسيه برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ودعوته لجماعة المسلمين بالاتفاق حول القرآن الكريم، ثم تذكر علم هذا الأمير الكريم الذي قال عنه رسول الله: (أنا مدينة العلم وعليّ بابها). وتكمل أمّ الهيثم تصوير مشاعرها نحو هذا الخليفة الراشد.

المبحث الثالث

رثاء النساء لشهداء الإسلام

قال تعالى: (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)[1].

أمّا الشاعرة من هنا يمتاز رثاؤها باللوعة الحارة، والعاطفة المتدفقة فهي تتمثل ابنها الشهيد (انقولا) الذي أُسر في الحرب اللّبنانيّة (١٩٧٥م) فهي تخاطبه بحبّ أموميّ يفوق في صدقه والتياعة كل وصف، فهي تأخذ بعض أبياتها:

طال البعاد أما قد حانا لقيانا ... يا أنقولا، فإن البعد أوْهانا
إن كنت أبدو أمام الناس هادئة ... في قلب أمك قد فجرت بركانا

وتقول:

شكراً حبيبي لقد أعطينا بطلاً ... به نتيه وقدر رفقنا شانا

وتقول كذلك:

مضى شهيداً فلم أبكي عليه لقد ... درّ الوديعة لمّا الوقت قد حانا
قد يملأ " يموتا " بهجته ... واليوم يملأ كلّ الكون إيمانا

يظهر في هذه الأبيات إيمان الشاعرة الراسخ وتثبيت حقيقة واقعية وهي أن الأبناء هبة من عند الله يهبها لمن شاء، وهو كذلك أمانة يعطيها لصاحبها ويأخذها منه متى شاء.

فالشاعرة عقيدتها راسخة وايمانها قوى تدل العقيدة على ثباتها وعظمة مبادئها وافكارها السامية ووطنيتها ومعايشتها للقضية وهي بهذه الكيفية تدفع وتشجع كل أم لدفع أبنائها للجهاد في سبيل الله والوطن، وهي تؤمن تماماً أنّ ابنها لم يمت وهذا صادر من عدم غيبته.

---

[1] – سورة البقرة، الآية ١٥٧.

عاتكة بنت زيد ترثي أزواجها:

هي عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نقيل القرشية، شاعرة من شواعر العرب ذات جمال وكمال وخلق حسن ورجاحة عقل وقوة رأي وقد تزوجت عدة أزواج وهم: عبد الله بن أبي بكر، وتزوّجت عمر بن الخطاب، وتزوجت الزبير بن العوام والحسين بن عليّ.

فقالت في رثاء عبد الله بن أبي بكر- وكان أصابه سهم يوم الطائف مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: رماه أبو محجن فماطله حتّى مات في خلافه أبيه:

رزئت الناس بخير بعد نبيهم وبعد أبي بكر وما كان قصدا
فلله عينا من رأى مثله فتى أكدّ وأحمى في الهياج وأصبرا
إذا شرعت فيه الأسنّة خاضها إلى الموت حتّى يترك الموت أحمدا
و لا تنفك عينى دور فعينه عليك ولا ينفكّ جلدي أغبرا
مدى الدهر ما غنيت حمامة أبكم وما طرد الليل الصباح المنورا

فعاتكة حزينة متألمة بهذه الرزية، وهذا الحادث المفجع حيث تعدّد مآثر زوجها عبد الله، ثم أخذت على نفسها بعدم فكّ عينها وذلك بإنهال الدموع ما دام الليل والنهار يكران. والعاطفة هنا رقيقة مؤثرة على القلوب حزناً.

وتقول في رثاء عمر بن الخطاب:

عيني جودي بعبرة وبخيب لا تملى على الإمام الحبيب
فجعتنى المنون بالفارس المعدوم يوم الهياج والتلبيب
عصمة الناس والمعين على الدهر وغيث المحروم والمحروب
قل لأهل العداء والبغي موتوا وقد سقها المنون كأس الشعوب

وتقول أيضاً فيه:

من لنفس عادها أجزائها ولعين شفّها طول السهد
جسد رفق في أكفانة رحمة الله على هذا الجسد

فيه تفجيع لمولى غارم لم يدعه الله يمشي سيد

فالعاطفة هنا عاطفة من القلق وتدعو للفقيد بالخير والبركات والرحمات حيث كان أمير المؤمنين عوناً للمحتاج والعاني وذوي المغارم.

ويقول في رثاء الزبير وتندر بعمرو بن جموز الذي قتله عددا:

غدر ابن جرموز بفارس لهمية يوم اللقاء وكان غير معدد
يا عمرو لو نبهته لوجدته لا طائشا وعن الجنات ولا ألد
شلت يمينك ان قلت لمسما حلت عليك عقوبة المتعمد
إن الزبير لذو بلاء صادق سمح سجيته كريم المشهد
كم غمرة قد خاضها لم يثنه عنها طرادك يا ابن فقع القردد
فاذهب فما ظهرت يداك بمثله فيمن مضى ممّن يروح ويفتدي

وفضائل العقيد هي التي استولت على مشاعر هذه السيدة الشريفية في رثاء زوجها وتعداد منافعه الحميدة عندما كان سيداً في السلم وفي الحرب. وتقول في رثاء الحسن بن عليّ:

واحسيناً ولا نسيت حسيناً أقصدته أسنّة الأعداء
عادرة بكر بلاء صريعا جاءت المزن في ذرى كربلاء[1]

فالتفجّع هنا هو ما يظهر لنا من إحساس هذه السيدة التى توالت الخطوبة عليها.

هند بنت زيد: قالت ترثي زوجها حجر بن عديّ:

ترفّع أيّها القمر المنير تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب فيقتله كما زعم الامير
تحيّرت الجبابر بعد حجر وطاب لها الخودنق والمسير

[1] – شاعرات العرب، ١/ ٤٥٠.

وأصبحت البلاد لها محورا كأن لم يحيها فوق مطير
ألا يا حجر يا ابن عديّ امضِ تلفتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما درى عليا وشجا في دمشق له زئير
يرى قتل الخيار عليه حقا له من شر أمّته وزير
الا يا ليت حجر مات موتاً ولم يخر كما نحر البعير
فان يهلك فكل زعيم قوم من الدنيا إلى ملك بصير

فالخطاب هنا من قلب متألم حزين بقصد رفقة تزوجها في العلو والمجد إلى مرتبة القمر إذ أنّ زوجها كان يسير في الليل بحرب الأعداء وسميره القصد ثم تعدد مناحي عليانة ومجده وكيف فعل به أعداؤه عندما ظفروا به وقتلوه. وتختم رثاءها بأنّ مصير الأحياء جميعاً الموت والهلاك ولا يبقي إلاّ العمل الصالح، وتقول:[1]

كل شيء مصيره للزوال
ومن بعد النبي فخبر نفس أبو حسن وخير الصالحينا
كأن الناس إذ فقدوا علياً نهار حال في بلد نسينا
ولو أنا سئلنا المال فيه بذلنا المال فيه والبنينا
أشاب ذؤابتى وأطال حزني امامه حين فاقت القرينا
تطوف بها بحاجتها إليه فلما استيأست رفعت رنينا
وعيره أم كلثوم إليها تجاوبها وقد رأى اليقينا
فلا تشمت معاوية بن صخر فإنّ بقية الخلفاء فينا
وإن كل سراتنا ذوي حجانا تواصوا أن نجيب إذا دعينا
بكل مضر غصب وجود عليهن الكماة مسومينا

ثمّ تصف أمّ كلثوم مشاعرها نحو الخليفة الراشد الذي قتل غدراً وظلماً ولو أنها استطاعت أن تفتديه بالروح والمال لم تبخل بذلك، ولكن هكذا كتب له. ومما يخفف الآلام

[1] – شاعرات العرب، ص ٤٦٢.

أنّ بعض ذريّة أمير المؤمنين سيولون الإماره والحكم وسوف يجني المجرمون ما صنعت أياديهم جزاءً وفاقاً.

وهنا يعرض الشعراء مآثر لمراثي الدينية ويسجلون المناقب الإسلامية الجديدة وهو تطور طرأ على شعر الرثاء في صدر الإسلام، في أشعار الخوارج، فقد ظهر لون جديد من الرثاء لم يألفة الشعر العربي من قبل وهو رثاء الشهداء، فقد صور الشعراء القتل بيد الأعداء وهو الشهادة التى طالما كان المقاتلون يحلمون بها وهي الغاية التى يجاهد المؤمن للوصول إليها، وهي أصدق استجابة لدعوة الله المؤمنين إلى الجنة[١]. ومن صور الرثاء لشهداء الاسلام قول ليلى الأخيليّة عندما قتل عثمان رضي الله عنه[٢] :

أبعد عثمان ترجو الخير أمّته ... وكان آمن من يمشي على ساق
خليفة الله أعطاهم وخوّلهم ... ما كان من ذهب جم وأوراق
فلا تكذب بوعد الله وارض به ... ولا توكل على شيء بشقاق
ولا تقولن شيء سوف أفعله ... قد قدر الله ما كل أمرئ لاق

فالشاعرة ترثي عثمان رضي الله عنه، وتثبت أنّ الخير كان في عهده، وأنّه خليفة الله في أرضه، فالرخاء والنعمة والمال يعمّ البلاد، ثم تسلم نفسها والأمة بأن كل شيء بقدر الله تعالى، ولا بدّ أن يلقى كلّ أمرئ ما قُدِّر له.

---

[١] – سامي مكي العاني: الإسلام والشعر، ص ١٧١.

[٢] – ليلي: الديوان، ص ٩٢. والمبرّ: الكامل، ص ٧٣٦. وابن قتيبة: الشّعر والشّعراء، ١/ ٣٦٠.

المبحث الرّابع

المعاني المستحدثة في رثاء النّساء

هنالك سؤال يطرح نفسه: هل اللّغة الشعرية ظلت على ما كانت عليه في الجاهلية الأولى أم طرأ عليها شيء من التغيير؟ اللّغة الجاهلية اتّسمت بطابعها الفنيّ المتكامل فضلاً عن قوّة البيان وسلامة الذوق، الأمر الذي جعلها تفرض نفسها على لغة الشعر والنثر[١] ورغم ذلك نجد أنّ الشعراء المحدثين عملوا على تطوير اللغة تبعاً لتطورات الحياة المختلفة وإن حافظوا على الأسس التى تقوم عليها اللغة من مبنى ومعنى، وتبعاً لمجريات الأحداث والنقلة الفكرية والثقافية التي انتقلها العرب من العصر الجاهلي إلى العصر الإسلامي وما يليه من عصور. كان لا بدّ أن يحدث تغيّر في مفاهيم الناس ومعتقداتهم. يقول ابن الأثير: (وينبغي أن نعلم أن الذي استحدثه من في زمننا هذا هو الذي كان عند العرب مستحسناً، وهو الذي كان عندهم مستقيماً)[٢].

ويقول: (وجملة الأمر أنّ الشاعر أو الكاتب ينظر إلى الحال الحاضرة ثم يستنبط بها ما يناسبها منها المعانى)[٣] وهذا ما حدث بالفعل بفضل الإسلام، فقد انبثقت ألفاظ جديدة تؤكّد صلة اللّغة الوثقى بالدّين الإسلاميّ الجديد، الأمر الذي جعلها تواكب الأحداث وتنمو وتتطور تبعاً لها، فنجد الألفاظ ذات صيغة إسلامية ودلالاتها مستقاه من الشرع الحنيف، ومن ثمّ استخدامها يشير إلى الإيمان والاعتقاد الجازم؛ فقد ظهرت معاني لم تكن معروفة في العصر الجاهلي أصلاً، فهي نبعت من نبع إسلاميّ أصيل يدلّ على أصالة شخصية الفرد المسلم وقوة احتماله للمصاب، ومن ثمّ ترجمة ذلك ونقله نقلاً دقيقاً عبر وسيلته المعبرة الصادقة ألا وهي اللغة. ومن تلك الألفاظ أوجِز: أحتسب، راجعون، الثّواب، الجنّة، النّار وغيرها. نجد هذه الألفاظ والمعاني ولدت بميلاد الإسلام وتمرحلت معه، وأنّ التّغيّر الذي

---

[١] – انظر: إبراهيم بن عبد الرحمن: الشعر الجاهلي قضاياه الفنيّة، د ط، د ت، الدّار القوميّة للطّباعة والنّشر، ص ٩٧.

[٢] – ابن الأثير: المثل السّائر، تحقيق أحمد الخوفي، ط (١)، ١٩٥٩م، ضياء للطباعة، ١/ ٢٢١.

[٣] – ابن الأثير: الاستدراك، تحقيق حنفي محمّد شرف، د ط، ١٩٥٨م، القاهرة، ص ٥٩.

يطرأ على المجتمعات بسبب الهزّات الفكرية والنفسية قد يولّد معاني جديدة لم تكن موجودة من قبل[١].

إنّ رثاء النساء أول ما تلجأ إليه المرأة هو دموعها إذا خذلها الدّهر أو كربها فإنّها تستر بالحزن وتشتد به، وتوالي البكاء وتستطيلة وفاءً وحسرة أو ضعفاً ورقة. فهل كان لرثاء النساء معاني تميّزه عن رثاء الرجال؟ الّذي أحسسته من مراثيهنّ معانى مستحدثه أي أنّهن يشدن بفضل المرثي ووصفه من شجاعة وبطولة وكرم ونجدة وعفّة الخ كما أشاد الرجال في مراثيهم، فمثلاً ترثي الخنساء أخاها صخر بالشجاعة في قولها : [٢]

فمن للحرب إن صارت كلوحاً ... وشمّر مشعلوها للنهوض
وخيل قد دلفن لها بأخرى ... كأنّ زهاءها سند الحضيض[٣]
بكلّ مهند عضْب حسام ... رقيق الحد مصقول رحيض[٤]

وأيضاً نجد في مرثية الفارغة بنت شداد نجدها تصورها لنا معاني وتعداد مناقب الميت أو المقتول إذ تقول:

يا عين ابكي لمسعود بن شداد ... بكاء دنى عبرات حزنه باد
قد يطعن الطعنة النجلاء يتبعها ... مضرّج بعدْها تغلي بأزياد
ويترك القرن مصغر أنامله ... كأن أثوابه محب بقرصاد
شهّاد أنديه رفّاع أبنية ... شداد ألوية فتّاح أسداد
جماع لكل خصال الخير قدْ ... زيت القرى ونكال الظالم العادي

تصف الفارغة في رثائها المّيت بأنّه هو الكريم، الشجاع الفارس في حموات الوغي والحكيم فكك الأسري وكريم الحسب والنسب، وهي صفات ما اختلفت في طرقها النّاس الشواعر في مقطوعاتهن من مرثية جنوب أخت عمرو في أخيها طرفة، وعمرة بنت دريد في

---

[١] – انظر: المثل السائر، ٢/ ٤-٦ .

[٢] – ديوان الخنساء .

[٣] – زهاءها: مقدارها. سند الحضيض: أسفل الجبل.

[٤] – الرّحيض: المغسول، يراد به السّيف.

أخت عمرو مرثية أم عمرو في أخيها طرفة، وعمدة بنت دريد في رثاء أبيها، وأم السليك في ابنها، وجليلة بنت مرّة في زوجها كليب، وأمّ بسطام في ابنها[1].

فلعلّهنّ بفقد أحبائهنّ، وفقدان خلاّتهن هدمت أعمدة السماء، وتصدّعت أسقف المنازل فوق رؤسهن، لأنّ القتيل أو المبنى فهو دعامة المنزل ورافع سقفه، وهذا يزول حكماً بموته، ولهذا قالت جليلة في كليب المقتول وأخيها جسّاس القاتل:

يا قتيلاً خرب الدهر به سقْف بيتيّ جميعاً من عل
هدم البيت الذي استحدثته وبدا في هدم بيتي الأوّلِ

ومثلها ذبية الفهمية إذ تقول في ذلك على مستوى قبيلتها عامّة فهم عماد السماء التى تنظمها:

قتلتم نحو ما لا يحول ضيفهم ولا يذخرون اللّحْم أخضر زوايا
عماد سمائي أصبحت قد تهدمت فخرّي سمائي لا أرى لك بانياً

وكذلك كان المرثيّ عندهن عفيفاً ظاهراً، نظيف الإزار، لا يدور مظلمة قالت العواءر بنت سبيع في أخيها هذه المعاني:

أبكي لعبد الله إذ حشت قبيل الصبح ناره
طيات طاوي الكشح لا يرحب لمظلمة زاره

ومن هذا ما نراه أيضاً في قول الخرنق بنت بدر ترثي سرّاً ومن قتل معه في يوم كلاب:[2]

لا يبعدون قومى الذين هم سم العداوة وافة الجزر

تصفهم بأنّهم هم الذين لا يرتكبون فاحشة على ما لديهم من شجاعة وجود وسخاء.

---

[1] – راجع شعرهن في الديوان

[2] – الرثاء في الجاهلية والإسلام، ص ١٤٧.

أمّا الخنساء التى رثت أخاها صخراً بأبيات ومعانى جعلت منها سلماً لصفات المرثيّين بتلك المعاني، وهى لا تكفي بمطالبة عينها بزرف الدّموع على الكريم الذي رمته الحادثات فقط، بل كما شعر النساء أنّها ستكون في قمة سعادتها لو أسعفتها عيناها بزرف الدّموع التّي باتت وطيفة عليها ومكلفة بها أمد الدهر، وكأنّها ستعيش وهو تبكى صخراً إذ لا حياة بعده دون بكاء عليه، ولم تخرج بهذا عن الأسلوب الجاهليّ في الرثاء، باستخدامها كلّ المؤثرات في النفوس لإبراز قيمة المرثيّ، قالت:[1]

ألا يا عين ويحك أسعديني لريب الدّهر والزمن العضوض
ولا تبقي دموعاً بعد صخْر فقد كُلِّفتِ دهْرك أن تفيضي
ففيضي بالدموع على كريم رمته الحادثات ولا تغيضي

والرّزء كبير على حليلة بنت مرة بفقد زوجها كليب على يد أخيها جسّاس فبقيت بين نارين: نار الحزن المشتعل في صدرها وتمنيها لو حلب دمها من أكحلها فداء له، ونار عدم قدرتها على المطالبة بأخذ ثأر له، لأنّ أخاها جسّاساً هو القاتل، الأمر الذي دعاها إلى اللجوء إلى قدرة الله تعالى ليريحها من عذابها وحزنها فقالت:

درك الثأئر شافية وفي درك ثأري ثكل المثكل
ليته كان دمى فاحتبلوا بولاً منه دماً من أكحلي
إنّني قاتلة مقتولة ولعلّ الله أن يرتاح لى

وكذلك كانت أمنية أمّ السّليك ان تقوم نفسها المنية بدلا من أبنها السليك.

ليت نفسي قدّمت للمـنايا بدلك

وهذه سعدى بين الشمردل تبكي أخاها أسعد الذي بكته كلّ العيون فتقول:

وأبيت مخلية أبكى أسعداً ولمثله تبكي العيون وتهمع
وتبين العيْن الطليحة أنها تبكي من الجزع الأحيل وتدمع

[1] – المصدر نفسه، ص ١٥٠ – ١٥١.

والّذي يبدو لنا من تلك المعانى للرثاء على الرغم من حمله للمعاني الجاهليّة التقليدية، صدفة على ما نرى من روح التضحية التى تتمتع بها في شعر المرأة والتى تتمنى أن تكون بدلاً من المرثي في الموت؟ وهو أمر برز في شعر المرأة أكثر من شعر الرجل في الرثاء، فالشاعر في رثائه كان يكتفي بتحريض المرأة على البكاء، والندب على عاداتها في بكاء الميت إضافة لإسباغ الصفات الحميدة التي برع الشعراء الجاهليين في إسباغها على الميت من شجاعة وكرم وعفة، وحماية للحمى وإجارة الملهوف، وإغاثة الأرامل ورعاية أولادهن، إضافةً إلى الدّعاء للميّت بالسقيا، وبكاء الطبيعة عليه، والثّأر له من قاتلية وضيف حال من بعده، وهو لا يمس الطّيب[١] ويهجر الغانيات وأماكن اللهو، ويخشون في حياته حتى يثأر للمقتول[٢].

ومن أبرز هذه الصفات التي ذكرت آنفا حين كانت النساء حواسر سمة رئيسية من شعر المرأة مع الرجل على السواء قول خريطة بنت عاصم:

وقفت فأبكتني بدار عشيرتي على رزئهنّ الباكيات الحواسر
غدوا كسيوف الهند وداد حومة من الموت أعيا ودّهن المصادر
فوارس حاموا عن حريمى وحافظوا بدار المنايا والقنا متشاجر

ونقل النساء الحزن بحلق الرأس، ولبس الحداد من الشعر وشق الجيوب الذي اشتهرت به النساء الشواعر في الرثاء وقالت الخنساء:

ولكنّي وجدتُ الصّبر خيراً من النّعلين والرّأس الحليقِ

فهذه المعانى التى تذكرها المرأة عما مارسته حين سماعها لخبر النعي لا تتفق به مع الرجل فالرجل لا يحلق رأسه، ولا يشقّ الجيوب وإنّما يمتنع عن اللهو حتى يأخذ ثأره.

استحدث الرثاء عند النساء في حياتهم الجديدة أغراضاً جديدة لم تكن موجودة من قبل:

الشعر الدينى:

---

[١] – صبح الأعشى، ٤٠٣.

[٢] – شرح ديوان ابن ربيعة، ٥٣. ثم احسان عباس

كان الرثاء الديني من أبرز الأغراض، حيث بدأ الشعراء يتحدّثون عن عقائد الدين ومثله العليا ويدعون إلى التمسك بها، والتحلّي بما تدعو له وهو لون جديد من شعر الرثاء لم يكن لدى العرب من قبل الإسلام يستوعب أن يتحدثوا عنه لغرض شعرى خاص واحد[١] وهو نوع قائم بذاته، وهو الشعر الذي يقوله الراثي مناجياً ربه، متحدّثاً عن عظمة وجلال ربوبيته وكماله وعظيم ما خلق وجليل ما وهب مستغفراً لذنوبه مرسلاً الدموع، مكثراً من الابتهال إليه. ولقد ألحقنا به ما قاله الشاعر من حكمة تهدي إلى خُلُق حسن، أو موعظة تهدي إلى ما يتصل إلى تهذيب النفوس في علاقتها بربها وبنى جنسها، فقد تطوّر شعر الرثاء الديني في الإسلام لا يفهم حقّ الفهم إلاّ بمعرفة الشعر الديني في الجاهلية، فلا بدّ من المرور بتلك الفترة الماضية[٢]. لم يكن الشعر الديني في الجاهلية عند المشركين واضح السمات ولا يصوّر عاطفة دينية عميقة وليس لذلك من سبب إلاّ لأن الشاعر العربي في ذلك الزمان قليل الانشغال بالمور الدّينية. الشعر الجاهلي الديني قليل يتصل بالأصنام والأوثان. والقارئ له يشعر بأنّه ليس شعراً دينياً واضح الملامح فصل السمات، بل هو خطرات خاوية المعاني[٣] إنّما كان تعلقهم بالأصنام تعلّقاً شركياً في القسم بها[٤] وقد آمنوا بالله وأسندوا إليه الثواب، وقصروا على الغيب عليه، وآمنوا بأنّه الحيّ القيوم الباقي[٥] هذا بالنسبة للشعر عند المشركين، أمّا أهل الديانات السماوية من الجاهليين . على قلّتهم . فلهم شعر كثير.

ونجد الشّعر الدينيّ في صدر الإسلام يشكّل قدراً لا بأس به وهو يتشعّب شعباً في موضوعات شتّى منها تعظيم الله وتسبيحه وتعداد مظاهر عظمته، ومنها شكره على النعمة، ومنها الابتهال إليه والاستغفار من الخطايا والتخوّف من الذّنوب، وتدفّق النفس الروحي في هذا المجال لا ينقطع حتى نرى الشعر الديني يرتدي ثياب الخلق والعفة والدين الطاهر متاثراً بالعاطفة الدينية كما يصور ذلك قول امراة غاب عنها زوجها غيبة طويلة:[٦]

---

[١] – الإسلام والشّعر، ص ٨٢ – ٨٣.

[٢] – عبد الله حامد الحامد: شعر الدعوة الاسلامية في عصر النبوة والخلافة الراشدين، ص ١٦٣.

[٣] – تاريخ الادب العربي للبلاشير ص ١٨٩

[٤] – شعر الدعوة الاسلامية ص ص ١٦٤

[٥] – الحياة العربية في الشعر الجاهلي احمد محمد الخوفي ص ٣٢٠ – ٣٢٦

[٦] – شعر الدعوة الاسلامية ص ٥١٢ –٥١٣

تطاول هذا الليل تسري كواكبه وأرّقني ضجيع الأغبة
يسر به من كان يلهو بغرة لطيف الحشا لا تجوبه أقاربه
فوالله لولا الله لا شيء غيره لزحزح لهذا السرير جوانبه
ولكنّني أخشى رقيباً موكّلاً بأنفسنا لا يفتر الدهر كاتبه

المبحث الخامس

الخصائص الفنيّة في شعر الرّثاء عند المرأة في صدر الإسلام

بمجيء الإسلام انتقلت المعايير الجاهليّة، وحلّت محلّها قيم إسلاميّة ترقى بالإنسان لمستوًى رفيع، وتغيّرت نظرة الموت والحياة عنده. وأقوى سند على ذلك شاعرة المراثي المخضرمة السيدة تماضر بنت عمران الشديد السلمية، قُتِل أخواها صخر ومعاوية، وحزنت عليهما، واشتدّ جزعها على الأوّل جزعاً ترجمته على صفحات شعرها، سطرته بماء عيونها ونسجته على خدودها ندوباً، ولم تكف عن هذا من الوله والجزع حتّى بعد دخولها الإسلام. ويُروى أنّ السيدة عائشة رضي الله عنها نظرت إلى الخنساء وعليها صدار، فقالت: يا خنساء! أتلبسين الصّدار وقد نهى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عنه؟ فقالت: لم أعلم بنهيه، ولكن لهذا الصدار سبب. فقالت: وما هو؟ قالت لها: زوجي رجل متلاف فأخفف فأراد أن يسافر فقلت له: أقم وأنا آتي، فعاد صخر فيسأله، فأيننه زوجي فشاطرنى ماله فأتلفه زوجي فعدت له، فعاد لى بمثل ذلك فأتلفه زوجى فعدت له فلما كانت الثّالثة أو الرابعة قالت له إمرأته: إنَّ المال مُتلف فامنحها شراره فقال صخر:

والله لا أمنحها شراراها ولو هلكت خرقت خمارها

واتّخذت منْ شعرٍ صدارها

فلمّا هلك اتّخذتُ هذا الصّدار[1].

ورغم الحزن المفرط والألم الّذي مزّق أحشاءها على أخيها لأبيها صخر، فقد صبرت الخنساء على فقد أبنائها، بل حتّى إنّها هي الّتي دفعت بهم إلى ميدان المعركة، وذلك لعمق إيمانها وثبات عقيدتها ورسوخها فلم تبك أبناءها، وقد حكى الزبير بن بكار أنَّ الخنساء حضرت حرب القادسيّة ومعها بنوها الأربعة فخاطبتهم قائلة: (إنّكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، والله إنّكم بنو رجل واحد، كما أمّكم إمرأة واحدة، ما خنت أباكم ولا فضحت حالكم

[1] – المبرد: الكامل في اللّغة والأدب، ٢/ ٣٢٦ – ٣٢٧.

ولا هجّنت حسبكم ولا غيّرت نسبكم، وقد علمتم ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أنّ الدّار الباقية خير من الدّار الفانية، فإنّ الله تعالى يقول: (يا أيّها الّذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا الله لعلّكم تفلحون)[١].

فأعدوا إلى القتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطرمت نظر على سياقها وجللت ثاراً على أوراقها، فتيمّموا وطيساً، وجالدوا رئيسها أربعتم فبلغها الخبر، فقالت: الحمد لله الّذي شرّفني بقتلهم جميعاً، وأرجو من ربّي أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته[٢].

انظر كيف تلاشت تلك المراثي المليئة بالمشاعر الصّادقة المتدفقة بالجزع والوله الذي أسعر قلبها، وفتت كبدها، وقرح عيونها، فانطلقت مردّدة أشعارها الّتي ملأت الدّينا، وعقدت مآتم ضخمة كلّها لوعة متقدة وأسًى، وحلّت محلها معاني الصّبر وآيات اليقين والبشرى طلباً للمغفرة وجزيل الثواب وعظيم اللّقيا بهم في دار المقامة والخلود، فلم تلطم خدّاً ولم تشقّ جيباً، ولم تلبس صداراً، بل عمدت إلى دفعهم إلى ساحات الجهاد والاستشهاد، ولم ترثيهم ببيت واحد من الشعر[٣].

نجد أيضاً أنّ الإسلام غيّر كلّ المفاهيم الجاهليّة، وأحدث انقلاباً فكريّاً كبيراً على الرّغم من إقراره لكلّ شيء لا يتنافى مع أسس الدين الحنيف، وهدم كلّ ما هو باطل وزائف، فقد غرس الإسلام فكرة الحياة بعد الموت وهذا التعبير جعل رثاء المرأة في الإسلام تنظر إلى الحدث بنظرة مختلفة عن رثاء المرأة الجاهلية رغم أنه يذكر لفظة (الموت – الدّهر) وغيرهما من شعره مقتطفاً أثمار الجاهليين، لكنه يختلف معهم في الفكرة والتعبير في معنى الاحتساب والصبر طلباً للثّواب، ورضًى بالقدر. ومن ذلك قول الخنساء في رثاء ابنها:

هو الصّبر والتسليم لله والرضا ... إذا نزلت بي خطة لا أشقّها
إذا نحن إبنا سالمين بأنفسٍ ... كرام رجت أمراً فخاب رجاؤها

---

[١] – سورة آل عمران: الآية ٢٠٠.

[٢] – احمد الحنبكيّ، وأحمد السّلاوي: قطوف الرّيحان من زهر الأفنان، د ط، د ت، جدار التوزيع روضة الصّغير، الرّياض، ص ٢٤٢.

[٣] – ابن عبد ربه: العقد الفريد، ص ١٨٥.

فأنفسنا خير الغنيمة إنَها ثؤوب ويبقي ماؤها وحياؤها
ولا بر الأدون ما برّ عامر ولكنّ نفساً لا يدوم بقاؤها
فإن أحتسب أؤجر وإن أبكِهِ أكن كباكيةٍ لم يحي ميتاً بكاؤها[1]

فقد افتتحت مقطوعاتها بقولها (هو الصّبر والتّسليم) ثمّ تتابع طلبها الأجر والثواب، فهى ترثي أحسن العزاء وأجزل العطاء في شفاعة ابنها لها في الدار الآخرة.

وممّا يخفّف لوعة الفقدان سرعة لحقوها به، أي أنها لا محالة سوف يدركها ذلك المصير وتؤول إلى تلك الحالة. ومن ذلك قول إعرابية تندب ابنها:

لئن كنت لى لهواً لعيني وقرّة لقد صرت سقماً للقلوب الصحائح
وهوّن حزنى أنّ يومك مدركي وأني غداً من أهل تلك الضرائح[2]

فترى التخفيف من شدة الوله وتضاؤل حجم الأسى والألم بأنّها ستلحق بوليدها وتكون من ساكني القبور.

والإسلام حرّم تلك العادات الجاهليّة، إلاّ أنّه لم يحرّم البكاء بالصّورة الّتي تحفظ كرامة المرأة بحيث تخلو من هذه العادات، لأنّ الحزن صفة غالبة أودعها الله تعالى في قلب الإنسان، فنجد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يقول للنّساء المسلمات وهنّ يبكن قتلى أحد: حمزة لا يبكيه أحد، وأخذن يبكين ولكن ليس كما كن يفعلن في الجاهلية.

الرسول صلّى الله عليه وسلّم نفسه دمعت عيناه عند وفاة ابنه إبراهيم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على إبراهيم فقبّله وشمّه ثم دخلت عليه بعد ذلك . وإبراهيم يجود بنفسه . فجعلت عينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تذرفان. فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يارسول الله؟ فقال له عبد الرحمن بن عوف: إنّها رحمة. ثمّ أتبعها بأخرى فقال صلّى الله عليه وسلّم: (إنّ العين لتدمع، والقلب ليحزن ولا نقول إلاّ ما يرضي الله، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزنون)[3].

---

[1] – ابن عبد ربّه: العقد الفريد، ٣/ ١٨٧.

[2] – المرجع نفسه، ص ١٩٠.

[3] – ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاريّ، ط(٣)، ص ٢٧٢.

وقد كانوا أيضا يعقرون على قبر الميّت تكرّماً وإشعاراً لفضله بين النّاس. وقال ابن لسيد: (قال قوم: إنّما كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميّت على ما كان يعقره من الإبل في حياته للضّيفان)[1].

وقد حرّم ومنع الإسلام هذه العادات أيضاً، فإذا ما كانت هذه العادات من لطم خدود وعقر على قبر الميت[2] وسيلة من وسائل التّعبير عن الحزن وتعظيم الميت فلا يفعل أن يقف الشعر مكتوف الأيدي دون أن يشارك في التعبير عن هذه الجراح والأحزان بوصفه أرقى وسائل التعبير عن النفس في جميع حالاتها، فجادت القرائح وذُرفت الدموع بالكثير من القصائد الخالدة التى استجادها النّقاد على مر العصور.

ومن كلّ ذلك، نرى بيزوغ الإسلام تغيرت المفاهيم الجاهلية وأحداث الأسلام في قصائد العزاء دور فعال ومؤثر في تخفيف الكثير من الأحزان على المكلومين. والواضح للذين يدرسون الأدب العربيّ إبان ظهور الإسلام وزمن الخلفاء الراشدين أن التغيّر لم يكن في شيء سوى في المعاني التى تتنافي مع عقائد الاسلام وآدابه وتعالميه بوجه عام.

والآن فلنلتقِ مع الخنساء في زمن الإسلام. تلك الشّاعرة التي تقول عنها الدكتورة بنت الشاطئ أنّه من غير المعقول أن تصاب بالعقم إبانه فلا تقول شعراً، فنجدها تقول:

يا عين جودي بدمع منك مهراف ... إذا هدى النّاس أو همّوا بإطراق
إنّي تذكّرني صخراً إذا سجعت ... على الغصون هتوف ذات أطواق
وكلّ عبرى تبيت الليل ساهرة ... تبكى بكاء حزين القلب مشتاق
لا تكذبَنَّ فإنَّ الموتَ مُخْتَرِمٌ ... كلّ البريّة غير الواحد الباقي

فها هي ذي تقول منادية عينها أن تجود بالدمع العزيز، وأن تسكب منه ما يتدفق دلالة على حزنها، وآيةً على ما يملأ صدرها وقلبها وفؤادها من ألم، تدعوها للبكاء كلّما وجد الناس ألاّ فائدة منه، أو استسلموا للحزن واطرقوا برؤوسهم أسفاً، ذلك لأنّ الخنساء لا تنسي صخراً دائماً أن تقف على الأشجار هاتفة، كلما طلع صباح وكلّما آذن النّهار بمساء، وتبكي أيضاً

[1] – أحمد الحوفيّ: الحياة العربية في الشّعر الجاهلي، ط (٤)، مكتبة نهضة مصر، ص ٤٩٢.
[2] – المبرّد: الكامل، ص ١٩٥.

موقنةً أنّ الموت سنّة تخترم الناس جميعاً، ولا يبقى سوى الواحد الباقي، ناظرة في قولها هذا إلى ما ورد في القرآن: قال تعالى: (كلّ من عليها فان، ويبقي وجه ربّك ذو الجلال والإكرام)[1] فأثرها بهذا المعنى القرآنيّ واضح لا يحتاج إلى إشارة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّه معنًى يتنافى وما تواضعت عليه في الجاهليّة، وهنا نستطيع أن تقول في اطمئنان: إنّ هذه العقيدة قبلت في زمن الإسلام.

ومن رثاء الخنساء في هذا العصر نجد قول قتيلة بنت النضر في رثاء أبيها الذي كان ممّن قتلتهم المسلمون يوم بدر فقال[2].

يا ركباً ان الأثيل مظنة من صبح خامسه وأنت موفق

إلى أن قالت:

ما كان صبرك لو منْنّ وربما منّ الفتى وهو المعيط المحنف
والنّضر أقرب من أخذت بزلة وأحقّهم إن كان عتق يعتق
لو كنت قابل جزيةٍ لفديته بأعزّ ما يفدي به من ينفق

فقد أسبلت قتيلة العبرات على أبيها، وتمنّت أن تصله تحيّاتها ميتاً، وإنّ دموعها تكاد تخنقها لوعة وحسرة على فراقه، وقد لجأت إلى الأسلوب المؤثّر باستخدام عطف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنّه ابن سيدة كريمة الأصل، وتمنّت لو أنّه أطلق سراحه، ولو كان قبل لفدته بأعزّ ما تملك[3].

وأيضاً نجد رثاء السيّدة فاطمة الزهراء لأبيها الرسول صلّى الله عليه وسلّم سيد خلق الله وهى تفقد هادي البشريّة جمعاء، وبذلك مزجت عاطفتها الأبوية بعاطفة الهداية البشرية من الرسل الكرام صلوات الله عليهم أجمعين تقول:[4]

---

[1] – سورة الرّحمن، الآيات (٢٦– ٢٧).

[2] – ديوان الخنساء شاعرة بني سليم، ص ١١٠.

[3] – المرجع السابق، ص ١٠٤.

[4] – ابن رشيق القيروانيّ: العمدة، ٢/ ١٥٣.

اغبرّ آفاق السّماء وكُوِّرت شمسُ النّهارِ وأظلم العصْران

وبعد، فإنّنا خلاصة هذا نلاحظ أنّ الرّثاء في صدر الإسلام ما يلي:

- شيوع ظاهرة الحزن على الفقيد وهذا ما ألفناه في العصر الجاهليّ.
- تنوع الرثاء فقد يكون للآباء والأبناء والأخوات والأحبّة.
- صُبِغَ هذا الرّثاء بالصبغة الإسلاميّة من حيث الإيمان بالقضاء والقدر.
- كان الرّثاء للرسول صلّى الله عليه وسلّم رثاءً مرّاً موجعاً، تألّمت له نفوس المسلمين جميعاً؛ لأنّه كان هادي البشرية ويكفي دليلاً على صحّة ما نقول أنّ المسلمين كانوا بين مصدّق ومكذّب لموت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتّى وزع يقول لله تعالى : (وما محمّد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل. أفإن مات أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم)[1].
- كثرة المفاهيم الاسلامية في هذا الشعر الإسلاميّ والإشادة بفضل الميت، والكفّ عن كشف عورات القتلى عملاً بقول الرّسول صلّى الله عليه وسلّم: (اذكروا محاسن موتاكم).
- تناول هذا الرّثاء شخصيات إسلاميّة عامّة مثل الخلفاء والولاة وكل ذو شأن في الاسلام بحيث كان موتهم حزناً لجميع المسلمين، وما زلنا نحزن ونبكي بقلوب دامية على مصرع سيّدنا حمزة وجعفر والحسن والحسين وعمر بن الخطاب وعثمان وعليّ؛ لأنّ هؤلاء كانوا من جلّة الصحابة وخيارهم، ولم يكونوا شيوخاً لعشائر تحترمهم قبائلهم في نطاقها وكفى، بل كانوا عمالقة في الإسلام ومهتدين.

[1] – سورة آل عمران، آية ١٤٤.

الفصل الرّابع
رثاء النّساء في العصر العباسي

المبحث الأوّل: دور المرأة في ظهور الفرق الإسلاميّة

المبحث الثّاني: رثاء النساء للخوارج

المبحث الثّالث: اختلاف صور الرّثاء وتطوّرها

المبحث الرّابع: خصائص فن الرّثاء عند المرأة في العصر العبّاسيّ

يُعتبر العصر العباسي من أرقى العصور الفكريّة والأدبية والثقافية العربية نتيجةً لما حدث فيه من تلاقح فكري، وتمازج ثقافيّ حدث من اتّصال العرب بالعديد من الثقافات الأخرى بعد أن ازدادت رقعة الأراضي الإسلاميّة ، حيث أدّى هذا التلاقح والتّمازج إلى إفراز أنماط مختلفة في الثقافة ترتبط بالأصل الذى نبعت منه، وهو الأصل العربيّ، فقد ظلّ العبّاسيون ينظمون في الموضوعات في المديح وغير المديح ممّا كان ينظم فيه الجاهليون والإسلاميّون، وبذلك أبقوا للشعر العربي على شخصيّته الموروثة، وقد مضوا يدعمونها دعماً بما لاءموا بينها وبين حياتهم العقلية الخصبة وأذواقهم المحتضرة المرهفة، فإذا هي موضوعات تتجدد من جميع أطرافها تجديداً لا يقوم على التفاصيل بين صورة هذه المضوعات الجديدة وصورتها القديمة، بل يقوم على التّواصل الوثيق[١].

ولكنّ هذا التجديد والتطور فى هذا العصر لم يكن من حيث البكاء على الفقيد ثم ضربهم الأمثال بمن ذهبوا من الأمم، كلّ هذه الموضوعات نجدها لم تتغير على مر العصور، بل إنّنا نجد بعضاً منها ما زال موجوداً في المرثية حتى عصرنا هذا، وهذه المواضيع هى أساس قصيدة الرثاء الذي قامت عليه في عصورها المختلفة؛ لذلك لا نحسب أنّ هناك تطوّراً وتجديداً عليها في هذه الجهة.

وقد سار شعر الرّثاء في العصر العباسيّ على نهج الرثاء في العصر الأمويّ في الجمع بين التعزية والتهنئة، وهذا الموقف يتطلب رصانة في التفكير للتّخلّص من الحرج، وخاصّة إذا كان الفقيد المرثيّ عزيزاً لصاحب التهنئية.

وصور الرثاء في هذا العصر تغيّرت كثيراً عنها في العصر الأمويّ، وذلك لاختلاط التّفكير العام وتأثّره بالثقافات الأخرى من فارسية ورمية وسريانية، فلا غرابة إذاً أن تكون صور الرّثاء مختلفة بعض الاختلاف عنها في العصر الأمويّ بصرف النّظر عن تأثّر الشعر بالرّوح الإسلامية في كلا العصرين[٢].

---

[١] – شوقي ضيف: العصر العباسيّ الأوّل، ط (٦)، د ت، دار المعارف، مصر.

[٢] – محمّد حسن أبو ناجي: الرّثاء في الشعر العربي – جراحات القلوب، ط (١)، ١٤٠١١هـ=١٩٨١م، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص ١٥.

فقد نشط الشّعر في الرّثاء نشاطاً واسعاً إذ لم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد مشهور إلاّ وأبّنوه تابيناً رائعاً، وقد صوّروا في القوّاد بطولاتهم ومحنة الأمّة والجيوش في وفاتهم، وكيف يملأ موتهم القلوب حسرة وفزعاً.

وحقاً رثاؤهم لهم يفيض بالحزن واللوعة، ولكنّه مع ذلك يكتظ بالحماسة والقوة وتمجيد بطولاتهم.

المبحث الأوّل
دور المرأة في ظهور الفرق الإسلاميّة

لم تكن الحياة السياسية في عهد بني أميّة حياة هادئة، بل كانت حياة ثائرة، إذ كان الأمويّون يعدون في رأى كثير من الأمة الإسلاميّة غاضبين للخلافة[١].

قام الإسلام على تقدير السّيادة الإلهيّة وسيطرتها على أمور المسلمين الدينية والدّنيويّة سيطرة تنهض على مبادئ الحق والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نحن نعلم أن الحوداث قد تطوّرت بعد مقتل عثمان، فولّى على، ونشب بينه وبين السيدة عائشة وطلحة والزبير موقعة الجمل، ثم موقعة صفين بينه وبين معاوية، ولم يلبث أن قتل، فتحولت الخلافة إلى معاوية وبيته الأموى. وأصبحت وراثية في هذا البيت، وكان الأمويون في نظر كثيرين لا يمثلون الحكام الجديرين بالدولة الإسلامية؛ لأنّهم عادوا الإسلام في أوّل ظهوره. إنّ سيرة يزيد بن معاوية وابن أخته يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد لم تكن مرضية، وأيضا أنّ عمّالهم ظلموا الناس. ومن أجل ذلك سخط عليهم جمهور من القراء أهل التقوى والورع، غير أن هذا الجمهور لم يكن حزبا لمعارضتهم معارضة إيجابية، فقد اكتفى بإشاعة السّخط في الناس، واشترك منه نفر في بعض الثورات عليهم، ولكنّه على كل حال لم يقم بثورةٍ منظّمة.[٢]

فقد استولى زعيم الأمويين معاوية بن أبي سفيان عام ٤١ هـ – ٦٦١ م على مقاليد الحكم وشؤون الخلافة الإسلاميّة، فنقل عاصمة الخلافة من المدينة والكوفة إلى دمشق، وظلّت هي العاصمة الكبرى حتّى سقوط الدّولة الأمويّة عام ١٣٢ هـ – ٧٥٠ م، وكانت دمشق لقربها من جزيرة العرب ومصر والعراق مدينة تجارية تصل بين الشرق والغرب، تولى مقاليد الخلافة في دمشق طيلة العصر الأمويّ ثلاثة عشر خليفة، كان لهم السيادة على العالم الإسلاميّ كله، وكانت جيوشهم تسير من نصر إلى نصر.

---

[١] – شوقي ضيف: التّطوّر والتجديد في الشعر الأمويّ، ط (٨)، دار المعارف، القاهرة، ص ١٨٥.

[٢] – انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، ص ١٨٢ – ١٨٣.

ونجد الحجاز والعراق هي أهمّ المراكز التي نشأت فيها المعارضة لبني أميّة، وسرعان ما تكوّن تحت تأثير هذا السخط أحزاب سياسية ثلاثة كانت تعارض بني أميّة وتخاصمهم وتدعو إلى الانتفاض عليهم، وهى أحزاب الزبيريين والخوارج والشيعة، وقد تآلفت هذه الأحزاب حول فكرة الإمامة أو الخلافة ومن أحقّ بها من المسليمن. أمّا حزب الزّبيريّين فهم أتباع عبد الله بن الزبير فكان يرى أن تعود الخلافة إلى الحجاز، وأن يتولاها أحد أبناء الصحابة الأولين، بينما حزب الخوارج في العراق يرى أن ترد الخلافة إلى العرب والمسلمين جميعاً، ليولّوا عليهم أكفأهم وأجدرهم بها. وكان بجوارهم في العراق حزب الشيعة وكان يرى أن تردّ الخلافة إلى بني هاشم فهم بيت الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وهم أصحابه الحقيقيون[١].

كما نجد أنّ فريقاً من أبناء كبار الصحابة مثل الحسين بن عليّ وعبد الله ابن الزّبير، وعبد الله بن عمر أبوا أن يبايعوا يزيداً[٢].

ونشأت ـ نتيجةً لهذا الخلاف ـ أغراض متعدّدة عبّر فيها الشعراء كل يحاول الانتصار لفئته وهو ما عرف بالشعر السياسيّ، وإذا كان الزبيريون قد نادوا بإعادة الخلافة إلى مكّة باعتبارها الموطن الأصل للاسلام لما شرفها الله به ببناء الكعبة التى يتوجه إليها كلّ مسلم في عبادته، وأنّ الشيعة نادوا بإعادة الخلافة إلى آل البيت لصلتهم المباشرة للرسول صلّى الله عليه وسلّم، وأنّ الخوارج نادوا بأحقيّة الخلافة لمن توافرت لديه الشّروط الدينية فإنّ بني أميّة الذين جاءوا إلى السلطة باسم إقامة العدل الذي فرط فيه عليّ بن أبي طالب في نظرهم، فقد قصروا السلطة على العنصر العربىّ خاصّة، وعلى بني أميّة على وجهٍ أخصّ، حتّى عرفت دولتهم باسم الدولة العربية لدى المستشرقين، الأمر الذي عجل بسقوط دولتهم. عندما هب بنو العباس مطالبين بالسلطة باسم آل البيت متظاهرين مع الشيعة والعلوين.

يختلف الباحثون والمؤرخون في تحديد الموقف الذي نشأت فيه الشيعة فيذهب بعضهم إلى أن التشيع أقدم مذهب ظهر في تاريخ الإسلام، وأنّه نشأ في عهد الرسول صلّى الله عليه

---

[١] – التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص ٨٥.

[٢] – شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، ص ١٨٣.

وسلّم وأنّ أربعةً من كبار الصحابة قد لُقِّبوا باسم الشيعة هم أبو ذرّ، وسليمان، والمقداد، وعمار.

ويذهب بعضهم إلى أنّ البذرة الأولى للشيعة هي الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبى صلّى الله عليه وسلّم أنّ أهل بيته أولى أن يخلفوه، ويميل إلى هذا الرأى ماكد وتالدفيز الذي يذهب إلى أنّ بداية ظهور الشيعة كانت في اجتماع الشيعة[١] ولكنّ فريقاً آخر من الباحثين يذهب إلى أنّ الشيعة لم تظهر إلاّ في عهد عليّ ابن أبي طالب[٢].

ويحشد الّذين يميلون إلى الرأي الأول كثيراً من الأدلّة التاريخية تسند رأيهم منها أنّ النيّة اتجّهت لمبايعة علي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلّم من بعض القرشيين أمثال العبّاس وأبي سفيان[٣]، وأنّ جماعة من الصحابة كانت ترى أنّ عليّ أفضل من أبي بكر وعمر وغيرهما. من كل هذا نجد أن هذا الصراع الدائر قد أدى إلى ظهور الفرق الإسلامية ولها دور كبير في ظهور حروب أهلية وفتن كثيرة.

ونرى أن فريقاً من هذه الفرق يرى هذا الرأي منهم عمار وأبو ذرَ وسلمان الفارسي وجابر بن عبد الله وبنو العبّاس وأبو كعب وحذيفة وكثير منهم يرون أنّ الخلافة أحق بها علي[٤]. ويروى أن علياً تلكأ في مبايعته أبي بكر ستة أشهر لأنّه كان يرى نفسه أحقّ بالأمر[٥].

وقد خرج هذا الميل إلى عليّ ابى الجهر والاعلان يوم الشورى عندما جهر عمار والمقداد الى ابن عوف بضرورة مبايعة على، وتبادلا الشتائم مع أولئك الذين اقترحوا ترشيح عثمان من بنى أمية [٦] ووجد علي بن عوف واتهمه علناً بأنه ما ولّى عثمان الأمر إلاّ ليردّه إليه فيما بعد، وأنه حياة على على حدّ قوله، حسب دهر[٧].

---

[١] – ضياء الدين الريشى: النظريات الإسلاميّة، ص ٢٧.

[٢] – على وبنوه، ص ١٧٥.

[٣] – شرح نهج البلاغة، ٦/ ٧.

[٤] – أحمد امين: فجر الإسلام، ص ٥٩.

[٥] – الطبرى، ط٣، ص ٢٥.

[٦] – الطبرى: مروج الذّهب، ص ٢٤ – ٣٦.

[٧] – المرجع نفسه، ص ٤٥.

وكلّها أدلة تحاول أن تثبت تطلّع على إلى الخلافة بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ بعد مقتل عمر لم يكن إلاّ نتيجة فريق من المسلمين حوله يراه أحق بالأمر من سواه. وبذلك يكون هناك تعارض ما بين هذا الرأى ورأى الذين يعتقدون بظهور الشيعة إلى زمن الصراع بين على ومعاوية وأنه لا يمكن أن يعد عمار وأبو ذرّ والمقداد اسلافاً لهم لقولهم بإمامة على، وذلك لأنّهم لم يظهروا البراء من الشيخين ولا السب لهما، ولأنّهم عملوا لعمر بن الخطاب وأن أول من أحدث هذا القول عبد الله بن سبأ ولم يظهر قبله.[1]

فلما نزل معاوية في النخيلة على إثر صلحه مع الحسن انتهز الفرصة وساروا إليه فقالتلوا فريقاً من أهل الشام وحينئذ توجه معاوية إلى أهل الكوفة بالأمان لهم عنده ويكفوه شر إخوانهم فخرج أهل الكوفة لقتال الخوارج فقالوا لهم: ويلكم! ما تبغون؟ ليس معاوية عدوّنا وعدوكم. فأبى أهل الكوفة إلاّ القتال. فقال الخوارج: رحم الله إخواننا من أهل النهروان هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة[2] فانهزم الخوارج أمام الكوفيين ولم ينتخب الخوراج إماماً جديداً بعد مصرع الراسبيّ في النهروان إلى أن تولّى المغيرة بن شعبة ولاية الكوفة فانتخبوا المستورد ابن علقة التميمى وكان المغيرة قد قرر أن يسير في الناس سيرة هنيئة لا ينظر فيها إلا لنفسه وتفانة تبعا لذلك من الخوارج الذين كانوا يجتمعون ويتبادلون الرأي والنظر من أهل النهروان واتفقوا على إعلان القتال على أهل القبلة، وعقدوا المؤامرات[3].

بيد أنّ المغيرة أحسّ بهذه المؤامرة فأمر الشرطة بأن تحيط بدار حبان ولكنّ زوجته نجحت في إخفاء السلاح وذكروا أنّهم لم يجتمعوا في دار حبان إلاّ لتلاوة القران ولكن لم يقتنع المغيرة وأمر بسجن بعضهم وكان من بينهم معاذ بن جوين الشاعر.

وفي اعتقادنا أن كلمة الشيعة لم تظهر مضافة إلى عليّ إلاّ بعد وقوع الفتنة، ولم تدل على معناها المعروف عند الفقهاء والمتكلمين إلاّ بعد مقتل على ونزول الحسن عن الخلافة لمعاوية، وإنما كانت الكلمة تدل على معنى آخر في حياة عليّ وفي معناها اللغويّ الذي

---

[1] – المنية والأمل، ٢/ ٤١.

[2] – الطبريّ، ٦/ ٩٥.

[3] – المصدر نفسه، ص ١٠٠.

جاء في قوله تعالى: (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه)[١]. وفي قوله عز وجل: (وإنّ من شيعته لإبراهيم)[٢].

واللفظ في الآيتين وفي غيرهما من الآيات بمعنى الأنصار والأتباع الموافقين وعلى هذا تكون الشيعة للمسلمين الذين ناصروه واتّبعوه ووافقوه.

وبهذا المعنى أيضاً كان لمعاوية شيعة رأته أحق بالأمر فناصرته هذا ما تقاضى عليه على بن أبي طالب ومعاوية قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم والمؤمنين والمسلمين وقاض على أهل الشام ومن كان معهم من شيعتهم بل الكلمة أطلقت على الفرقين فسوت بينما في قولهما: (وإذا توفي أحد الحكمين فإنّ أمير الشيعة يختار مكانه)[٣] .

ولما جاء موعد التحكيم في الوقد المحدد في رمضان من نفس العام الذي كتبت فيه الوثيقة بعث علي رضي الله عنه أربعمائة شخص ورئسيهم شريح بن هانى الحارث وعبد الله بن عباس إمامهم في الصلاة وولى أمرهم، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة رجل وعند دومة الجندل. بأزرج كان اللقاء وفي هذا الاجتماع طلب عمرو بن العاص من أبي موسى الرضى بتولية معاوية، فلمّا أبى عليه أبو موسى طلب منه عمر أن يتولاها ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال له: إنك غمسته في الفتنة وأبى منه، وكان أبو موسى يرغب في تولية عبد الله بن عمرو، ولكنّ واحداً منهما لم يرض بطلب صاحبه، وأخيرا بما تذكر الرويات التاريخية أنّهما اتّفقا سراً بينهما أن يخلفا عليّاً ومعاوية، ثم ينظر المسلمون فيمن يختاروه، وكان عمرو عادته على أن يقدمه في كلّ كلام، وحينما حان موعد إعلان النتيجة قدّم عمروا عادته ليقول للناس إنّه قد اتّفق راينا، فأعلن أبو موسى من ناحيته مع على ومعاوية، فقام عمرو مقامه وثبت بعد أن خلع عليّاً، وهكذا انتهى بهم الأمر إلى هذه النتيجة غير المرتقبة ولا المرضية، وعاد أهل العراق إلى على وعاد أهل الشام إلى معاوية يسلمون بالخلافة. وأرى أن موقف عليّ هذا لا يتناسب والعهد الذي اتفق عليه مع أبي موسي، غفر الله للجميع.

---

[١] – سورة القصص، الآية ١٥.

[٢] – سورة الصّافات، الآية ٨٣.

[٣] – محمد بن عبد الله الحمدى أباي: مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوى والخلافة الراشد، ص ٢٨١.

هذه هي الصورة التي يثبتها كثير من المؤرخين لكيفية التحكيم، وهم بذلك يثبتون أنه قد كان خداع في التحكيم من جانب عمرو بن العاص، ومن العلماء من يرى أنّ هذه القصة تحتوى على الهزل الكثير، فليس من اللائق بالصحابة أن يتّصفوا بالخداع[١] ويقول كثير من وصف الحكمين: (والحكمان كانا من خيار الصحابة نصبا ليصلحا بين الناس ويتفقا على أمر فيه وفق بالملسمين وحقن دمائهم وكذلك وقع، ولم يضل بينهما إلاّ فرقة الخوارج)[٢] ومن أهمّ هذه الفرق الإسلامية منها الخوارج، الأزارقة، والنجدات، الصفرية، الإباضية.

أما الخوارج، الواقع استعمال لكلمة الخوارج كان منذ أن خرج الخوارج على على رضي الله عنه يؤكد ذلك قول أحد أنصار عليّ رضي الله عنه هو جندب الأزديّ: لمّا عدلنا إلى الخوارج ونحن مع عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه فانتهيا إلى معسكرهم، فاذا لهم دويّ كدويّ النّحل من قراءة القرآن)[٣].

وذكر ابن أبي الحديد أنّ عليّا سماهم الخوارج وذلك حين قال: (لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه).

أمّا الأزارقة فهم أتباع راشد نافع بن الأزرق، وقد وصف نافع أنّه كان على قدر كبير من الشجاعة، وقدرة على الخطابة والتأثير ومعرفة القرآن الكريم. ذكر أنه كان يخلص إلى عبد الله بن عباس وهو بمكة يسأله عن تفسير آيات القرآن، وكان لنافع آراء متطرفة، بسببها فارقته طوائف الخوارج كقوله بكفر مخالفيهم، ومعاملتهم معاملة الكفار وبرأته من العقيدة وتكفير كلّ من لم يهاجر إلى معسكره[٤].

ويذكر الأشعريّ أنّ نافعاً هو الذي أحدث أول خلاف بين جماعة الخوارج، ويروى أن ذلك رواية انتهت باتباع جماعة لا رأته قسمين هذه الجماعة هي الأزارقة[٥] وقاد نافع هذه الجماعة من البصرة إلى الأهواز، وسيطروا عليها وعلى ما وراءها من بلاد فارس وكرمان،

---

[١] – جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الحوزى: التلبيس، ص ٣٩.

[٢] – تلبيس البغدادى المتوفي ٥٩٧ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص ٧٥.

[٣] – أبو الحديد: شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل، دار مروج الذهب، ٥/ ٧٨.

[٤] – ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، تحقيق محمّد أبو الفضل، ط (٢)، ١٢٨٧هـ = ١٩٦٧م، ٤/ ١٣٦.

[٥] – أبو الحسن على بن اسماعيل الاشعري: مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلّين، تحقيق هلمون ويشر، ط(٢)، ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م.

وقام هو وأصحابه يسفكون الدماء ويقتلون الأطفال حتى روّعوا سكّان هذه المناطق. وامتدّ نفوذهم إلى البصرة، فحاربهم عمّال ابن الزبير في هذه المناطق ولم يستطيعوا هزيمتهم. ومن أشهر هذه المعارك معركة دولاب التي قتل فيها نافع بن الأزرق[١].

وهذا قد بايع الأزارقة عدة أمراء أشهرهم الشاعر القطريّ بن الفجاءة الذي خلفه بعد نزاع وقع بينه وبين جماعة من الأزارقة اتّهموه فيه بالكفر ممّا دفعه إلى السير إلى طيرستان في جماعة، فلحقت به جيوش الأمويّين وأوقعت به الهزيمة وانتهى الأمر بقتله.[٢]

وللأزارقة آراء شاذّة كثيرة، منها ما ذهبوا إليه من أنّ من ارتكب كبيرة من الكبائر يكفّر كفر ملة، ويخرج بذلك من الإسلام، ويكون مخلّداً في النّار مع سائر الكافرين.[٣] ومن الآراء الشاذّة أيضاً الّتي اتّصف بها الأزارقة هي جهلهم بالشرع وعدم فقههم في الدين.[٤] وذلك إسقاطهم حد الرجم عن الزنا للمحصن بحجة أنه لم يرد في القرآن نص عليه[٥]. كما أوجبوا على الحائض الصلاة والصوم في حيضها[٦]، وهذا ظاهر في جهلهم بالقرآن وعدم الإلمام بالسنة، ويصدق عليهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم (يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم).[٧]

أما النجدات فهم أتباع نجدة ابن عامر الحنفي، وكان السبب في دعامته نافعاً بن الأزرق لمّا أظهر البراءة من القاعدين عن القتال وإن كانوا على رأيه، وسمّاهم المشركين، واستحل قتل الأطفال والنساء من المخالفين، فارقه جماعة منهم نجدة بن عامر الذي خرج على نافع بن الأزرق وذهب إلى اليمامة[٨]. وأصبح لنجدة واتباعه نفوذ في دائرة واسعة شملت البحرين وشواطى الخليج وامتدت إلى عمان وبعض أجزاء اليمن.

---

[١] – تاريخ الطبري، ٥/ ٦١٤ – ٦١٢.

[٢] – أحمد محمد على جلى: دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين الخوارج الشيعة، ط (٢)، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ص ٦٨.

[٣] – الشهرستاني: الملل والنحل، ١/ ١٢٢.

[٤] – أحمد جلي: دارسة عن الفرق الإسلامية وتاريخ المسلمين، ص ٦٩.

[٥] – الشهرستاني: الملل والنحل، ١/ ١٢١.

[٦] – ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٤/ ١٨٩.

[٧] – أحمد جلي: دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين، ص ٧٠.

[٨] – عامر النّجّار: من مذاهب الإسلاميين، ط (١٩٩٥م)، دار المعارف، ص ٥٧.

وقد تبادل كل من نافع ونجدة الكتب، أنكر فيها نجدة على نافع تكفيرهم للعقيدة مع أنّ الله عذرهم في قوله تعالى: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله)[١] ومع ما تم من تبادل الرسائل بين نجدة ونافع لم يستطع أحدهم أن يقنع الآخر.[٢]

أمّا الصفرية حول نسبتهم يوجد خلاف واسع فهناك من ذهب إلى أنهم ينتسبون إلى عبد الله بن صفار التميمي الذي كان مع ابن الأزرق في بداية عهده ثم انفصل عنه عند وقوع الخلاف بين قادة الخوارج.[٣]

وهناك من أرجع نسبهم إلى زياد بن الأصفر[٤] وذكر المسلطى في التنبيه والردّ أن الصفرية هم أصحاب المهلب بن أبي صفرة[٥] ولكنّ المهلب عرف أنّه كان يقاتل الخوارج فهو إذاً من أعدائهم، وهم أسوأ من تابعيه.

والصفرية أقل مغالاة في الأداء خلافا للأزارقة، فلم يكفّروا العقدة إذا كانوا موافقين في الدين والاعتقاد[٦]. والأمر مرتكب الكبيرة، وميّزوا بين الذنوب التي فيها حد مقرّر كالزنا والسرقة، فهذه في رأيهم لا يتجاوز مرتكبها ما سماه الله به من أنّه زانٍ أو سارق.

والصفرية أجازوا زوجات المسلمات من كفار قومهم في دار التقية دون دار العلانية. وعلى هذا، فإنّ فكر الصفرية أكثر تسامحاً من كثير من الفرق الأخرى، فلا يتضح في فكرهم عامة أو مبادئهم الغلوّ والتشدد الواضح عند غيرهم من الفرق.

أمّا الإباضية فهى تنتسب إلى عبد الله بن إباض، وهناك خلاف بين مؤرخى الفرق وحول أهميّة عبد الله بن إباض. يقول الشهرستانى أنّه هو الذى خرج أيّام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أميّة[٧] ويروي الطّبريّ ما يؤيّده الإباضيون أنفسهم من أنّ ابن إباض كان

---

[١] – سورة التوبة، الآية ٩١.

[٢] – المبرّد: الكامل، ٢/ ٩ – ٢ ٤ . وابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ٤/ ١٣٧ – ١٣٩.

[٣] – أحمد جلي: دراسة عن الفرق، ص ٧٢.

[٤] – المصلطي: التثنية والرد، ١/ ٥٢.

[٥] – الشهرستاني: الملل والنحل، ١/ ١٢٣.

[٦] – المرجع نفسه، ١/ ١٣٧.

[٧] – الشهرشتاني: الملل والنحل، ١/ ١٢٤.

مع نافع بن الأزرق، وأنه انشقّ عليه[١] وكان أوّل مرة مع نافع بن الأزرق ولكنه أتلف معه وفارقه ورد عليه، وفي كتب الإباضية ذكر سبب الفرقة بين عبد الله بن إباض ونافع ابن الأرزق، وهو أن ابن الأزرق كتب إلى صاحب الصفرية (ابن الصفار) وعبد الله بن إباض وغيرهما يدعوهم ومن معهم إلى معتقده الفاسد القائل (بتكفير العقدة والقول بشرك مخالفهم واستباحة دمائهم وقتل أطفالهم...) فقال ابن الصفار: (... برئ الله منكم جميعاً)، وقال أحد: (فبرئ الله منك ومنه)[٢] وابن إباض يعتبر نفسه وأتباعه امتداداً للمحكمة الأولى فكراً وعملاً، وهذا ما يثبته الإباضية المعاصرون الذين يقولون بأنّ الإباضيّة المعاصرون الذين يقولون بأنّ الإباضيةّ يجمعهم مع الخوارج الآخرين إنكار الحكومة بين عليّ ومعاوية.[٣] ويختلف الإباضيّة ورفضهم شرعية الحكم الأمويّ. ويصفهم ابن كثير في البداية والنهاية فيقول: (وهم حيز مستقلون وفيهم شجاعة وعندهم أنّهم مقرّبون بذلك، فهم لا يصطلي لهم بنار ولا يطمع في أن يوخذ منهم بثأر)[٤]

وكما اشتهر رجالهم بالشجاعة فقد اشهرت نساؤهم بالشجاعة، ولهن دور كبير في ظهور هذه الفرق الإسلاميّة؛ فها هي أمّ علقمة تبرهن على تلك الشجاعة عندما جاءوا بها أسيرة وأمام الحجاج وقعت دون اهتمام به أو استماع إلى حديثه، وسط دهشة الحاضرين من هذا الإعراض وعدم الاكتراث، فقيل لها: (الأمير يكلّمك يأم علقمة وأنت لا تنظرين إليه؟) قالت: (إنّي لأستحي أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه) فأمر الحجّاج بقتلها.

ومن النساء اللائي ضرب بهنّ المثل في الشجاعة والثبات غزالة الخارجية، لدرجة أنّ الحجّاج عبر بها، فقالت فيه:

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة ... ربداء تجفل من صفير الصافر
هلاّ برزت إلى غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحي طائر

---

[١] – تاريخ الطبري، ٥/ ٥٦٦ – ٥٦٧.

[٢] – سالم بن حمد سليمان الحارث الإباضيّ: العقود الفضية في أصول الاباضيّة، د ط، د ت، دار اليقظة العربيّة، لبنان، ص ١٢١.

[٣] – المرجع نفسه، ص ١٢٣.

[٤] – الفرق بين الفِرَق، ص ١١٣.

وذلك بعد أن تمّ لها ما نذرت به في دخول مسجد الكوفة والصلاة فيه ركعتين قد خلت المسجد في مائتين من نساء الخوارج متقلّدات السيوف معتقلات الرماح، وكان الحجاج قد أقفل أبوابه وجلس ينظر ما يأتى به القدر، ولم يعد الجبّار العنيد إلى أن ذهبت عزلته[١]. وكانت الغزالة من الشجاعة والفروسية بالموقع العظيم وكذلك أمّ مشيب، ولقد كان للمرأة دور عظيم في ظهور هذه الفرق الاسلامية؛ فقد أشعرت المرأة بثباتها وإقدامها وجرأتها وإصرارها، ولقد اعترف الجميع بذلك من صبر وجلد وعزيمة في الحروب والمعارك.

ومن قصة أخرى عند حمرة توضّح لنا شجاعة ودور المرأة في هذه الفرق الإسلامية، فتحدّث لنا عمرو بن حطان، وهو من شعراء الخوارج عن ذكر جمرة؛ فتذكر لنا الرويات التّي وردت في المصادر المختلفة أنّ عمران بن حطان كان دميماً، ويعلل د إحسان عباس هذا الوصف فيربطه بقصّة تحوله إلى المذهب الخارجي بتأثير امرأة جميلة تدعى جمرة[٢].

فتقول الروايات أن شاعرنا كان في أول أمره طالب علم، وحينما رأى جمرة بنت عمه تأثر بجمالها وأحبها، وكانت خارجية، فتزوجها أملاً في ردّها عن مذهبها، ولكنها أخذته إلى مذهب الخوارج، وفي رواية أخرى عن المصادر ما يدلّ على مدى العلاقة الطيبة بين الزوجين، وهى العلاقة التى يؤكّدها الشاعر نفسه عندما يمدح زوجه بأصدق الكلمات فيقول في وصف جميل:

يا جمر إني على ما كان من خلقي ... مئن بخلاّت صدقٍ كلّها فيك
الله يعلم أنّي لم أقل كذباً ... فيما علمت وإني لا أزكّيكِ[٣]

ونجد عمران يحبّ جمرة حباً شديداً وصادقاً، ولكنّ الخروج واجب مقدس، وموت صديقه وقائده أبي بلال يجعله في شوق إلى الموت واللحاق بأبى بلال فهو في نزاع ين أمرين. فلا يجد سوي جمرة ربة الجمال والدلال، ومن غيرها يجعله يحب الحياة ويتمسك بها وفي ذلك يقول:

---

[١] – مروج الذّهب، ٣/ ١٤٧.

[٢] – إحسان عبّاس: ديوان شعر الخوارج، ص ٢٩.

[٣] – المرجع نفسه، ص ١٧٦. ووردت في الأغاني، ١٦/ ١٥٧.

يا جمر يا جمر لا يطمح بك الأمل فقد يكذّب ظنّ الآمل الأجل
يا جمر كيف يذوق الخفض معترف بالموت والموت فيما بعده جلل
كيف أواسيك والأيام مقبلة فيها لكلّ امرئٍ عن غيره شغل
وقد أظلّتك أيّام لها خمس فيها الزلازل والأهوال والوهل[١]

فهنا نظرة الباحث الفاحصة نجد أنّ جمرة هى نفس عمران، والأمل طمح بنفسه هو ولم يطمح بها كما يتصوره، وأنّه هنا يواسي نفسه ويؤلمها لينجو من الصراع الذي جعل العيش والموت على طرفي نقيض، فنعم العيش في أحضان الزوجة الحبيبة الوفيّة العاقلة الا ينقصه إلاّ الموت.

وأيضاً نجد الجعيداء لها دور كبير في هذه الفرق؛ فعندما قام أبو حمزة في رجال قليل العدد سيدافعون عنها عبثاً والتقى بهم ابن عطية أسفلها، ودارت معركة على فم الشعب قتل فيها زوجها في القتال، وكانت ترتجز بقولها:

أنا الجعيداء وبنت الأعلم من سأل عن اسمي فاسمي مريم

بعت سواريّ بسيفٍ مخذم [٢]

ومن كل ذلك نرى أنّ للمرأة دور في ظهور الفرق الإسلاميّة مقطوعة ليلي الأخليّة التي برز موقفها من خلالها، والتى طالبت فيها معاوية بجرأة أن ينهض ويستسلم زمام الأمور؛ فليس أحقّ أن يدعى للخلافة من معاوية، وأن يكون أمير المؤمنين:

قتل ابن عفان الإما م قد ضاع أمر المسلمينا
وتشتت سبل الرشا د لصادرين وواردينا
فانهض معاوية نهضة تشفي بها الداء الدفينا

[١] – حسن عبّاس: ديوان شعر الخوارج، ص ١٦٧. **اللّغة**: الزلل: الاهوال والشوائد. والوهل: الخوف والفزع والذّهول.
[٢] – الأغانى ج ٢٠ ص ١٠٩

أنت الذي من بعده تدعى أمير المؤمنينا [1]

وهذه الأبيات تظهر موقف ليلى السياسي بشكل واضح ولهفة أقوى، فلا بدّ أن توجّه نداءها لمعاوية ليستلم زمام الامور، ويستلم مقاليد الخلافة، ويدعى بعد عثمان رضي الله عنه بأمير المؤمنين، وهكذا تحدّد هذه المقطوعة موقف ليلى السياسي، وهى في ريعان شبابها، فتمرّ الأحداث، وتتأجّج نيران الفتنة، ويتسّلم الخلافة على رضي الله عنه، فلا نسمع لليلي صوتا عدا هذه المقطوعة ولا ندري هل سكتت ليلي، ولم تشارك في هذه الأحداث أم أنّها تكلّمت ولم يصلنا شعرها؟

وتمرّ الأيّام، ويستلم معاوية الخلافة، فنراها تظهر على الساحة بعد انقطاع عن الأحداث؛ يروي الحصريّ: بينما معاوية يسير إذا رأى راكباً، فقال لبعض شرطته: ائتني به وإيّاك أن تروّعه، فأتاه فقال: أجب أمير المؤمنين، فقال أياه أرته، فلمّا دنى الرّاكب حدّد لثامه، فإذا ليلى الأخيليّة فأنشأت تقول[2]:

مُعَاويَ لمْ أكَدْ آتيك تَهْوي برَحْلِي رَادةُ الأصلاب نابُ
قريح الظهر يفرح أن يراها إذا وضعته ليتها الغرابُ
تَجُوبُ الأَرْضَ نَحْوك ما تَأنّى إذا ما الأكمُ قنّعها السَّرابُ
وكنتَ المُرْتَجى وَبِكَ استغاثَت لتُنعِشَها ؛ إذا بَخُلَ السَّحابُ[3]

قال المرزوقي في شرحه للبيتين: تقول: لم أكد أزورك وقد زرتك تطير برحلي راحله وشقية الظهر لينه وقد أخذت من السمنة والقوى بالنصيب الأوفر، دبره الظهر يفرح الغراب إن وضعت عنها برذعتها، ونظر إلى ظهرها لأنّه ينقره ويدميه أن ترك.

---

[1] – ابن عبد البر: الاستيعاب، ٣/ ٨٣. بهامش الإصابة في تميز الصحابة. والزّبير بن بكّار: الموفقيات، ص ٥١١. وانظر: ليلى: الدّيوان، ص ٢٢٠.

[2] – ليلي: الدّيوان، ص ٥١. وانظر: زينب بنت على العاملية: الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدود، ط (١٣٣٢هـ = ١٩١٤م)، مطبعة بولاق، ص ٤٧٦. وانظر زهر الآداب، ص ٩٣٢.

[3] – المرزوقيّ: شرح ديوان الحماسة، ٤/ ٨٤. **اللّغة**: تأنّى: من الانائه. الأكم: جمع الأكمة.

فراحلة ليلى تجوب الارض نحو معاوية لا تفتر، ولا تهدأ حتى لو اعترضها المهاب والمرتفعات وقد علاها السحاب وظلتها الغيوم؛ فأنت أيّها الخليفة كنت المرتجى، وبك استغاثت هذه الراحلة إذا ما أجدبت الأرض وبخل السحاب بالمطر فكان سراب.

وكذلك نجد تعاطف ليلى مع بنى أميّة وموقفها المؤيّد لهم في مناسبة أخرى عندما كان عبد الله بن الزبير قد دعا لنفسه بعد استشهاد الحسين، وكان الخليفة في الشام يزيد بن أبي سفيان، فكان هوى ليلى مع الخليفة الأمويّ كما رأينا في أبياتها التي ترثي فيها عثمان بن عفان رضي الله عنه وتقول فيها:

فانهض معاويَ نهضةً تشفي بها الداء الدفينا

ولذلك نجدها تهاجم عبد الله بن الزبير بمحاولته حرب الخليفة.

يا أيها السدم الملوي رأسه ليقود من أهل الحجاز بريما[١]
أتريد عمرو بن الخليع ودونه كعب إذا لوجدته مرؤما[٢]
إن الخليع ورهطه في عامر كالقلب ألبس جؤجواً وحزيما[٣]

وهكذا نرى تأييد ليلى لبني أميّة من خلال مديحها لأمرائهم، وكذلك مديحها للخليفة، ومن خلال مهاجمتها لأعدائهم ولمن تمرّد عليهم أو ثار ضدّهم.

فمن كلّ ذلك نرى أن للمرأة دور هام في ظهور هذه الفرق الإسلاميّة سواء كانت مناضلة أو شجاعة فلها دور هام وبارز في هذه الفرق مما سبق ذكره.

---

[١] – السدم: الهمّ مع ندم، او غيظ مع حزن. البريم: عنت به الجيش.

[٢] – الخليع: واحد من الخلفاء، وهم بطن من بنى عامر بن صعصعة كانوا لا يعطون أحداً طاعة. مرؤوما: معطوفاً عليه.

[٣] – الجؤجؤ: الصدر. الحزيم: موضع الحزام من الصدر. **وانظر**: ليلي، الديوان، ص ١٠٨.

المبحث الثاني
رثاء النّساء للخوارج

لقد انفردت المرأة الخارجية عن غيرها من النساء المعاصرات لها، ففدت العقيدة بروحها، وضحّت في سبيلها، وصبرت على الجهاد من أجلها، ونازعت الرجال الكفاءة في الحرب، وأشاد الشعراء بمقدرتها وخاصّة شعراء الخوارج ويؤكد ذلك النعمان القاضي بقوله: (وهي ظاهرة و لاحظها في شعر غير شعر الخوارج وهي في حقيقة الأمر صدًى لما كانت عليه المرأة الخارجية من قيام على تفدية العقيدة والتضحية من أجلها واحتمال النكال والوبال وتمزيق الأوصال في صبر وإيمان في سبيلها[١].

ومن خلال التتبع والدراسة والتحليل لفكرة الموت في شعر الخوارج برزت لنا تلك الرؤية، عاون على إبرازها وتوضيحها عدّة عوامل، منها: البيئة الجغرافية التي سادت الجزيرة العربية، والتي شبّوا عليها باقية في نفوسهم، فهذا جعلهم يرفضون حياة الترف والحضارة التى كانت عليها الحكومة الأمويّة، ويؤكّد ذلك الشايب بقوله: (إنّ الخوارج احتفظوا بطبعهم البدوى المذهب لم فسدهم تقاليد الحضارة المترفة ولا نزعتها الفاسدة، فبقوا صافي الطبع، سليمي الخلق لا تعوذ المرأة الصرامة ولا الصراحة الصريحة.[٢]

وكما تمنى شعراء الخوارج الموت كذلك تمنيته نساؤهم وفضلته على كل شيء، من هؤلاء عميرة زوج مجاشع البكرى؛ فلقد حولها رجل إلى رأي الخوارج، فدعت زوجها لذلك فأبي وأبت إلاّ أن تخرج، فكتب إليها زوجها قائلاً:[٣].

وجداً يصاحبني لعلّ صبابة منها تردّ حليلةً لخليل

---

[١] – النّعمان القاضي: الفرق الإسلاميّة في الشعر الأمويّ، ص ٤٦٣.

[٢] – أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي، ص ١٦٨ – ١٦٩.

[٣] – ابن طيفور: بلاغات النساء، ص ١٠٦.

فلن قتلت ليقتلن قتيلكم فتيقّني أنّي قتيل قتيل

فردت عميرة تجيبه قائلة[1]:

أبلغ مجاشع إنْ رجعت فإنّني بين الأسنّة والسيوف مقيلي
أرجو السّعادة لا أحدّث ساعة نفس إذا ناجيتها بغفول
ووهبت خدرى والفراش لكاعب في الحي ذات ومالج وحجول

فعميرة تترك زوجها لعدم استجابته لدعواها لاعتناق مذهب الخوارج، وتترك بيتها ومأواها مستبدلة به مأوًى آخر بين أسنّة الرّماح ودور السيوف في ساحات الوغي، وكل ذلك من أجل الحصول على السعادة الأبديّة. وصلت عميرة لهذا المستوى من امتلاك العقيدة لقلبها امتلاكاً ما بعده امتلاك.

وقد كان للخوارج رثاء عند النساء يستهل بالبكاء والنحيب، ويصوّر اختلاف الناس ومعاملتهم، ويقدّر أنّ الموت آت لا ريب فيه، ومن ذلك قول أمّ عمران ابنة الحارث الراسبيّ في رثاء ابنها عمران بعد معركة حامية بعدها صار قتيلاً:[2]

الله أيّد عمراناً وطهّره وكان عمران يدعو الله في السحر
يدعوه سراً وإعلاناً ليرزقه شهادة بيدي ملحادة غدر
ولي صحابته عن حرّ ملحمة وشد عمران كالضرغامة الهصر

نجد هذا الرثاء بتأييد الله له وتطهيره، ودعوة عمران الله وطلب الشهادة في سبيل الله ثمّ ثباته حين فر أصحابه ثم بسالته في الحرب، وهذا قلّما نجده في رثاء بعض الشخصيات الأخرى؛ إذ كانت معانى الرثاء تنحو منحى الكرم والإنفاق، أمّا هذه السيدة فقد أشادت ببطولة ولدها في ميدان القتال ويكفي القتال ويكفي ولده في ميدان القتال ويكفي ولده شرفاً في سبيل الله والاستشعار.

[1] – ابن طيفور: بلاغات النّساء، ص ١٠٩.

[2] – الكامل، ٢/ ٢١٦.

ولرثاء الخوارج صور أخرى منها لمّا قتل مصعب ابن الزبير بنت النعمان الثقفي أنكر الخوارج قتلها غاية الإنكار وأنّه قد أتى بقتل النساء أمراً عظيماً؛ لأنّه أتى ما نهى عنه الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. وفي سائر نساء المشركين فقال عمر بن أبي ربيعة يرثي هذه المرأة: [1]

إن من أعظم الكبائر عندي ... قتل حسناء غادة عطبول
قتلت باطلاً على غير ذنب ... إن لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا ... وعلى المحصنات جر الذيول

نجد هذا الرثاء مركزاً على قاعدة الاسنكار لمقتل امرأة بريئة لا ذنب لها، ثمّ لا ينسى عمر أن يتغنّى بالجمال من حيث هو جمال، بأنّ القتل والحرب مكتوب على الرجال أما النساء فإنّ لهنّ الدلال والإكرام والإحسان.

وقالت زينب الطثرية ترثي أخاها يزيد بن الطرية:

أرى الأثْل من وادي العقيق مجاوري ... مقيماً وقد غالب يزيدَ غوائله
فتى لا ترى قَدَّ القميص بخصره ... ولكنما توهي القميصَ كواهلُه
فتى ليس لابن العم كالذئب إن رأى ... بصاحبه يوماً دماً فهو آكله
يسرك مظلوماً ويُرضيك ظالماً ... وكل الذي حَمَّلْتَه فهو حامله
إذا نزل الأضياف كان عَذَوَّراً ... على الحي حتى تستقلَّ مراحله
وكنت اعير الدمع قبلك من بكى ... وانت على من مات بعدك شاغله

هذه القطعة رثاء خاصة، من أخت والهة حزينة على أخيها، الذي مات وترك اللوعات والحسدات والجمرات في قلبها، وتعدّد مناقب أخيها من الكرم والشجاعة والبأس، وهي قررت عدة حقائق منها البكاء يطفي لهيب الحزن، ويخفف من آلامها، ثمّ إنّ هذا السيد سيبقى ذكره حيا ما دامت حية وقد أبدعت زينب من هذه الصورة المتلاحقة الجميلة بصفاء التعبير ونقاء

[1] – الكامل، ٢/ ١٨١.

التفكير وبراءة الرثاء وفطرة البكاء وعمق الخطب وتألم الأضياف والمحتاجين بفقدان هذا السيّد الكريم[١].

أمّا الصورة العامة لرثاء النساء للخوارج صورة جديدة تخالف ما تألفه عند غيرهم من الشعراء؛ فهم لا يبكون فيمن يرثونه خلال الكرم والمروءة، إنّما تبكي فيهم المثل الأعلى للخارجيّ من التقوى ورفض الحياة الدنيا وزهرتها ومتاعها مصورين إقبالهم على الموت الذي يتمنونه لأنفسهم، الموت الذي يفتح لهم باب الفراديس والجنان هو رثاء وحماسي، فيه دعوة قوية لمنازلة خصومهم رثاء يفيض بالحنين إلى القتلى والمعنى مقدّما حتّى تفيض أرواحهم إلى أعناق افلاسهم، وتتخضب بالدماء صدورها وصدورهم[٢].

وأيضاً نجد الصراحة في التعبير، ويمكن القول بأن شعرهم أصدق صورة أدبية لمذهب سياسيّ إسلاميّ[٣]. وهو المرآة الصادقة لعقيدهم ولم يتخذوا من شعرهم وسيلةً لكسب العطاء والهدايا ولا الارتزاق به.

ونجد أيضاً الوضوح والسهولة والعفوية، فتجاوز شعرهم الصناعة والحذاقة والترقيق والتملي لتحقيق الإجادة الفنية والتميّز بها؛ وذلك لأنّهم لم يتّخذوا من شعرهم هدفاً فنيّاً، ولكنّه جاء على مستوًى فنيّ عالٍ.

نقاء الطّبع وسلامة الفطرة بالبعد عن الحضارة والترف وتجنّب المصادفة.

ويتميز شعرهم الفدائيّ بأنّه ينفذ إلى القلوب نفوذاً فهو شعر يصدر عن عقيدة وإيمان بالغ بهذه العقيدة؛ إذ آمن كلّ خارجيّ أنّه يدافع عن حقوق الله والإسلام، وأنّه إن لم يخرج حقّت عليه اللّعنة، بل وجبت له النّار.

والخلاصة أنّ شعرهم جديد في معانيه وموضوعاته وغايته وأسلوبه؛ فهو يتّسم بسماتهم من قوّة ووضوح وصدق.

---

[١] – حما الله التجرى، ص ٢٧٥. والأمالي، ٢/ ٨٥.

[٢] – شوقي ضيف: العصر الإسلاميّ

[٣] – مجاهد مصطفى بهجت، ص ٤٠ ، ٧٥.

المبحث الثالث
رثاء النّساء للأبناء والزّوج

لا تختلف عاطفة الحزن في رثاء الآباء عنها في رثاء الأبناء، بل ربّما كان رثاء الأبناء أشدّ حزناً وحرقة؛ لأنّه يعدّ من أصعب أنواع الرثاء؛ لأنّ الآباء يموتون لوعة ويذوبون أسًى على فراق فلذات أكبادهم حتّى لقد كان يهلك كلّ من هلك الكثير منه ناهيك عن النتائج غير المعقولة الّتي تحدث عن فقدان الأبناء. وقد ساهمت المرأة في هذا النوع من الرثاء بدموعها الغزار وقلبها الشجيّ عند المصية، وهذه عمرة الخثمعميّة ترثي ابنها، ويظهر من رثائها البكاء الذي يقطع الأكباد.

أبى الناس إلا أن يقولوا هما هما ... ولو أننا اسطعنا لكانوا سواهما
وقد زعموا أني جزعت عليهما ... وهل جزعٌ أن قلت وابأباهما
هما أخوا في الحرب من لا أخا له ... إذا خاف يوماً نبوة فدعاهما
هما يلبسان المجد أحسن لبسةٍ ... شحيحان ما اسطاعا عليه كلاهما
إذا افتقرا لم يلحما خشية الردى ... ولم يخش رزءاً منهما موليا هما
إذا استغنيا حب الجميع إليهما ... وجاد على الأدنين فضل غناهما
وأهلي فداء العاصمين كليهما ... ولا عشت إن كان الفؤاد قلاهما
إذا هبطا الأرض المخوف بها الردى ... يسكن من جأشيهما منصلاهما
ولا يلبث العرشان يستل منهما ... عظام الرواسي أن يميل غماهما

فالسيّدة تتغنّى بأخلاق ابنيها في البطولة والحماسة، وأنّهما كان يساعدان ذوي الحاجة والعوز، وحماستها بأنهما شهابان ساطعان في النجدة والكرم، وهما مشهوران في البذل والعطاء، وهما قد تركا زوجتيهما عانستين في بيت أبيها لمدة طويلة وقد تركا زوجتيهما وفرسيهما بعد أن كان يصولان ويجولان في الميدان، وهنا لا اختلاف في الرثاء عنها في

رثاء الآباء من ذكر الحزن والسيادة والبطولة، وإعانة ذوى العوز، وهي لا شكّ صورة مشرّفة واقعيّة بديعة.[١]

فنجد رثاء الأبناء من أكثر الأساليب التي تناولها الشعراء في الرثاء؛ فالأمّ تخاطب ابنها خلال معاناتها وألم البعد وألم الفراق معبرة عن أنّه ما يزال قريباً منهاً وإن بعدت بينهم المسافات، ولعلّ بعض الشّعراء يسلكون أسلوب الخطاب لقرب الفقيد من أنفسهم قاطعين عهداً لمواصلة الأسى والدّمع على فقدهم بل عدم نسيانهم .ومن ذلك قول أعرابيّة ترثي ابنها.

يا فرحة القلب والأحشاء والكبد يا ليت أمّك لم تحبل ولم تلد

إلى أن قالت:

أيقنتُ بعدك أنّي غير باقية وكيف يبقي ذراع زال من عضد[٢]

من قول هذا الأعرابية في رثاء ابنها: يا فرحة القلب والأحشاء والكبد، فقد جمعت هذه الشاعرة الألفاظ الثلاثة في شطر بيت واحد راسمةً صورة لهف أصابتها وشجاها وشدة ألمها وحسرتها إضافة إلى تمنّيها عدم حمل فقيدها بل ولادته، وهذه صورة لمشاعر حزينة وأحاسيس مكلومة ونفس مهزوزة محرومة من أحبّ وأغلى ما في دنياها، ولذلك يقول ابن رشيق: (والنّساء أشجى الناس قلوباً عند المصيبة، وأشدهنّ جزعاً على مالك كما ركب الله عز وجل من طبعهن من الخور وضعف العزيمة)[٣] وعلى أنّ هناك شاعرات كتبت بجزعهن وحزنهن ابتغاء للاجر وطلبا من الثواب ومن أشهرهنّ الخنساء إلى أن امتلات الآذان والبلدان من روائعها الرثائية في أخويها، ولكنّها عندما فقدت أولادها الأربعة قالت قولها المشهورة: (الحمد لله الذي شرفني بقتلهم جميعاً، وأرجو من ربّي أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته)[٤].

وأيضاً قول أعرابيّة وقفت على قبر ابن لها يقال له عامر فقالت:

---

[١] – محمّد حسن أبو ناجي: الرثاء في الشعر العربي او جرحات القلوب، ص ٢٥١.

[٢] – ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٣/ ١٨٩.

[٣] – ابن رشيق القيروانيّ، ٢/ ١٥٣.

[٤] – احمد الحنبلي: قطوف الريحان من زهر الأفنان، الناشر الشنقيطي، الروضة الصّغيرة، الرياض، ص ٨٢٢.

أقمت أبكيه على قبره من لي من بعدك يا عامر
تركتنى في الدار لي وحشة قد ذلّ من ليس له ناصر[1]

وقالت أيضاً:

ولا برّ إلاّ دون برّ عامر ولكنَّ نفساً لا يدوم بقاؤها[2]

نجد هذه الأمّ تبكي ابنها بقلب ممزّق وهي تصف حال وحدتها، ليس لها من بعده شيء، وهي ما زالت بعد فراقه مذلولة ليس لها أحد ينصرها. وبعد كلّ ذلك تقول وتصف أنّ كل حيّ للموت، وليست الحياة بدائمة، والموت حوض وارده كلّ حيّ في الدّنيا.

ومن أنواع رثاء الأبناء أيضاً نجد أعرابيّة ترثي ابنها وتقول:

فإن أحتسب أوجر وإن ابكه أكن كباكيةٍ لم يحي ميتاً بكاؤها[3]

فهي تفضل بلا شك الاحتساب والامر على الجزع والحزن والضعف.

فنجد هذه الألفاظ يتبع منها الحزن ومن ثمّ يذهب إلى العين ووصفها بشدة ألمها على الفقيد وتقرّحها، ويهب في حثّهما بالدمع الذي يطفئ حرارة القلب ويخفّف من شدّة الوجد واللوعة، وينفّس عن النّفس ولو قليلاً.

فلذا كثرت ملحوظة في رثاء الأبناء الذي يدلّ على الحزن الذي أصاب الشاعرة، ويدلّ أيضاً على الجواراح ومن ثمّ الإلحاح في طلب الدمع وأثر الفجيعة والصدمة. وهذا التّكرار يدلّ على شدّة الحزن، بل يثير كوامن الأسى في نفس تلك الأمّ الحنون الّتي فقدت ابنها وهي تبكيه وترثيه بكلّ المعاني، وتعبّر عن حزنها بأرقّ الألفاظ والمعانى السمحة.

أمّا رثاء الأزواج فيعدّ خاصاً، ذلك لأنّه يرثي عزيزاً على نفس الإنسان سواء كان هذا المرثيّ زوجاً أو زوجة. ورثاء الزوج من جانب الزوجة أو رثاء الزوجة من جانب الزوج دليل على الوفاء لأيام جمع الشريكين في حياة زوجية واحدة بحلوها ومرّها، ومهما قيل في ذلك

---

[1] – ابن عبد ربّه: العقد الفريد، ٣/ ١٨٩.

[2] – المصدر نفسه، ص ١٩٠.

[3] – محمّد جابر عبد العال، الخنساء شاعرة بني سليم، ص ٢٨٠.

فإنّ فيها صدقاً؛ لأنّه يمثل شعوراً كريما تجاه الفقيد زمناً طويلاً. فعن العصر الجاهليّ يضرب أمثلة لما قيل من جانب الزوجات لأزواجهن وهو الغالب نوعية على رثاء الزوجات؛ لأنّ الرجال كانوا يدخلون المعارك ويندر أن يخرجوا منها سالمين، لذا نالوا الحظ الأوفر من الرثاء في ذلك العصر المشحون بالحروب المضطربة بكثرة الغزوات والمعارك بين القبائل.

ومن ذلك قول جليلة في زوجها كليب عندما قتله أخوها جسّاس. فعندما بلغها أن أختاً لكليب زوجها قالت بعد رحلتها: (رحلة المتعدي، وفراق الشامت. ويل غداً لآل مرّة من الكرّة بعد الكرة). فقالت جليلة: (وكيف تشمت الحرّة بهتك سترها، وترقب وترها أسعد الله جداً أختي، أفلا قالت: نفرة الحياء وخوف الاعتداء). ثمّ أنشأت تقول:[١]

يا ابنة الأقوام[٢] إن لمتِ فلا ... تعجلي باللوم حتّى تسألي
فإذا أنتِ تبيّنتِ الّذي ... يوجب اللوم فلومي واعذلي
إن تكن أخت أمرئٍ لِيمَت على ... شفقٍ منها عليه فافعلي
جلّ عندى فعل جسّاسٍ فيا ... حسرتي عما انجلَتْ أو تنجلي
فعلُ جسّاس على وجدي به ... قاطعٌ ظهري ومُدنٍ أجلي
لو بعين فقئت عيني سوى ... أختها فانفقأت لم أحفل
يا قتيلاً قوّص الدّهر به ... سقف بيتيّ جميعاً من علِ
هدم البيت الذي استحدثته ... وانثنى في هدم بيتي الأوّل
يا نسائي دونكنّ اليوم قد ... خصّني الدهر برزء مفصل
خصّني قتل كليب بلظًى ... من ورائي ولظًى مسقبل
يشتفي المدرك بالثأر وفي ... دركي ثأري ثكل المثكل
ليته كان دمى فاحتبلوا ... بدلا منه دماً من أكحلي
إننى قاتلة مقتولة ... ولعل الله أن يرتاح لي

فهذه المرثيّة نابعة من جوف قلب، نابضة بالحزن المستكين لفقدان هذا الزوج وجليلة كانت في أمر حرج فالمقتول زوجها، والقائل أخوها، وماذا عساها تفعل سوى دموع غزار ثم

---

[١] – أيّام العرب، ص ١٤٨.

[٢] – ورد مكان الأقوام (الأعمام) في الأغاني، ٥/ ٦٣١. والوحشيات، ١٢٨. ونهاية الأرب.

تخاطب عاذلتها بالتّريّث في الحكم إذ أنّها حزينة كحزن أختها بل هو أشدّ لأنّها فقدت شقّها الآخر. وهي تستعظم فعل أخوها جساس بزوجها كليب وكانت تتمنّى لو أنّ عينها فقئت عوضاً عن فقدان زوجها.

ولاغرابة في هذا الإحساس المفجع والوجدان المضطرب، لأنّه من قلب مكلوم طوال الدهر لن يزول من النفس كمداً وحسرة. وختمت هذه المرثية بحكمة:

إنّني قاتله مقتولة فلعل الله أن يرتاح لي

هي دعوة المرثية بقوله: (ما أشجى لفظها وأظهر الفجيعة فيه، وكيف يثير كوامن الأشجان، ويقرح شرار النيران)[1]. فلا عجب أن جاءت هذه القطعة صادقة في إيحاءاتها، رفيعة في ظلالها.

وأيضا الجيداء ترثي زوجها خالد بن محارب الزبيدى وقد قتله عنترة بن شداد العبسيّ[2] وهي تقول:

يا لقومي قَد قرّح الدمعُ خدّي وَجَفاني الرّقادُ مِن عظمِ وَجدي
كانَ لي فارسٌ سقاهُ المنايا عَبدُ عبسٍ بجَورهِ والتعدّي
بَدرُ تمّ هَوى إلى الأرضِ لمّا رَشَقته السهامُ مِن كفّ عبدِ
وَرَماني مِن بعدِ أنصار جندي في همومٍ أُكابدُ الوجدَ وَحدي
يا قَتيلاً بَكت عليهِ البَواكي في جبالِ الفَلا وفي أرض نجدِ
كانَ مثلَ القَضيبِ قدّاً ولكن قدّه صرفُ دهرهِ أيّ قدِّ
يا لَقومي مَن يَكشفُ الضيمَ عنّي وَيراعي مِن بعد خالد عَهدي

تقريح الخدود الناضره بالدموع بداية هذه المرثية من هذه الزوجة الوفية لزوجها القتيل الذى غدر به عبد لئيم هو عنترة العبسيّ، ثمّ تصور حزنها عليه وقد هوى البدر من السماء

[1] – العمدة، ٢٢/ ١٥٣.

[2] – شاعرات العرب، ٢/ ٩٢.

تعجباً على زوجها. ثمّ رسم لنا صورة جميلة لبيان صفاته الجسمية وهى الاعتدال في القامة، ثمّ طلبت من قومها أن يمنعوا عنها الضّيم.

ومن رثاء الأزواج عيون شعر الخنساء الّتي عاشت مع زوجها مدراس ابن عامر حتّى مات فرثته بقصيدة من عيون شعرها، وهو يصور لنا عاطفتها الّتي سبق أن أشرنا إليها إشارة عابرة.

قالت تبكيه:

لمّا رأيْتُ البَدْرَ أظْلَمَ كاسِفاً أرَنَّ شواذٌ بَطنُهُ وسَوائِلُهْ
رنيناً وما يغني الرَّنينُ وقدْ أتى بموتكَ منْ نحو القريَّةِ حاملهْ
لقدْ خارَ مرداساً على النَّاسِ قاتلهْ ولوْ عادهُ كنَّاتهُ وحلائلهْ
وقلنَ الاهل من شفاءٍ ينالهُ وقدْ منعَ الشّفاءَ منْ هو نائلهْ
وفضَّل مرداساً على النَّاسِ حلمهُ وانْ كلٌّ همٍّ همَّهُ فهو فاعله
تركتَ بهِ ليلاً طويلاً ومنزلاً تَعادَى على ظَهرِ الطّريقِ عَواسِلُهْ
متى ما تُوازِنْ ماجِداً يُعْتَدَلْ بهِ كما عَدّلَ الميزانَ بالكَفّ راطِلُهْ

فها هي الخنساء تفتتح رثاءها لزوجها مدراس قائلة أنها حينما رأت البدر احتجب واظلم وغاب ضوؤه. أحسّت أنّه لا بدّ من حدث خطير، إنّهم فرسان الحيّ القادمون يثيرون التراب فيحجب وجه القمر ويبدو كاسفاً.

حدث جاد لإحساسها أنّ صداه يرنّ فى الوادى فى جميع جنباته عالية وباطنه ومجارى ميامنة، او على الرّواية الأخرى: يرنّ فى جنبات الجبل فرعه و أسفله. ولقد تعوّدت أن تحس بهذا الرنين مقدم زوجها مع الفرسان، ولكنّها أفاقت على الحقيقة شيئاً فشيئاً. وبعد تصوير هذه الأحاسيس في صورة شعرية جميلة، أخذت في الحديث عن مرداس الذي اعتادت أن تستقبله بعد أن تنجلي هذه الزوبعة الرملية التي ثيرها حوافر الخيل عن رجال الحيّ، فقالت إنّ قائلة تخبره من بين صحبه جميعاً، لما اتّصف به من شجاعة، ولما له من مكان بين أهل بيته، فصوّب نحوه الطعنة القاتلة، التى لا يجدى معها علاج الحلائل ولا تطلب نساء الابناء، طعنة يحار في أمرها هؤلاء النساء، اللائى يتساءلن عن سبيل إلى الشفاء منها ولكنه الجرح الذي لا برء منه والذى قدر الله لا شفاء من علته. وهذه الصورة التي تأتي بها

الخنساء، متخيلة إصابة زوجها بطعنة قاتلة لا يجدى معها طب ولا تمريض، ويستعين وراء بكل ما أوتيت من جهد وخبرة، ثم تصوير خيبة أملهنّ في الظفر بعلاج هذه الطعنة، إنّما تريد بذلك أنّ حماسة وحرب تزال على مالزوجها من حب في قلوب أهل بيته جميعا كما اتّصف به من عليهن، سماحة جعلتهن يتفانين في اتّخاذ الوسيلة للعلاج.[١]

وقد جاءت الخنساء بهذه الصورة لتوفي بها بما في قلبها نحو زوجها ذلك الحب الذي أشرنا إليه، وهنا ينبغي أن نقف وقفة قصيرة مع الخنساء، فنحن نراها تتحدث عن الحلائل وفعلهن نحو مرادس دون أن نشير إلى نفسها، وكلّ هذا يصور لنا حبها العظيم وإخلاصها لزوجها الذي مات مقتولا بهذه الطعنة الشنعاء[٢]

كما نجد أيضاً في رثاء الإمام عليّ كرّم الله وجهه للسّيدة فاطمة الزهراء يقول:[٣]

لكلِّ اجتماعٍ من خليلن فرقة وكلّ الذي دون الممات قليلُ
وإنّ افتقادي واحداً بعد واحدٍ دليلٌ على أن لا يدومَ خليلُ

فمن ذلك نرى أنّه مهما طال العمر بالإنسان مع شريكه، فلا بدّ أن يفارقه ولا يبقى في هذه الدنيا غير الله خالق البشر، قال تعالى: (كلّ من عليها فان، ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام)[٤] .

وقال الدكتور طه حسين:[٥]

وهل يأنفُ الإنسانُ من ملك ربّه ويخرجَ من أرضٍ له وسماء

ويقول الزيّات في رثاء زوجته وذكر فضائلها:[٦]

ألا من أمنّيه المُنى فأعدّه لعثرة أيّامي وصرف زماني

---

[١] – ابن رشيق القيروانيّ: العمدة في محاسن الشعر، ص ١٢٥.
[٢] – المصدر نفسه، ص ١٩٩.
[٣] – ابن عبد ربّه: العقد الفريد، ٣/ ١٨٩.
[٤] – سورة الرحمن، الآية (٢٦ – ٢٧).
[٥] – طه حسين: الأيّام، ط (١٩٣٩م)، دار المعارف، القاهرة، ص ٣٥.
[٦] – شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ عصر الدّول والإمارات، دار المعارف، مصر، ص ٥١٩.

فلم أرَ كالأقدار كيف تصيبني ولا مثل هذا الدّهر كيف رماني

يبيّن الشاعر مدى تأثّره بفقدان زوجته، وكيف تغلل من وصف ما للحلائل من الرفق، وما الرجل من الأنيس وكيف اعتمد عليها حين يطارحها الاحاديث، فأعدها بعثرة أيامه وصرف زمانه.

وهنا نلتمس وأجبات الزوجة تجاه زوجها وقيامها بها على أكمل وجه من احترامته وتقديره ورعايته والأمان على نفسها وعرضها وماله إذا غاب عنها، فهو يتحسّر ويحزن لفراق زوجته التي امتازت بهذه الخصال الكريمة.

وأيضاً في رثاء الأزواج رثاء الخرنق لزوجها بشر بن عمرو[١] الّذي قتله بنو أسد يوم قلاب[٢] وهي تقول في رثائه:

أعاذلتي على رزءٍ أفيقي فقد أشرقتِني بالعذل ريقي
فلا وأبيك آسى بعد بشرٍ على حيٍ يموت ولا صديقِ
وبعدَ الخير علقمة بن بِشْرٍ إذا ما الموتُ كان لدى الحلوقِ
وبعدَ بني ضُبيْعة حولَ بِشرٍ كما مالَ الجذوعُ مِنَ الحريقِ
منتْ لهم بوالِبةَ المنايا بجوف قُلابَ للحَين المسوقِ
فكم بقلابَ من أوصالِ خِرقٍ أخي ثِقةٍ وجُمجمةٍ فليقِ
ندامى للملوكِ إذا لقوهمْ حُبوا وسقوا بكأسِهم الرحيقِ
هُمُ جدعوا الأنوف وأرغموها فما ينساغ لي من بعد ريقي

نجد هذه القصيدة التي ترثي بها الخرنق زوجها بشر نلاحظ أنّ هذه الصورة كلّها حزن وألم وقلق وحسرة على وفاته، فأخذت تسكب الدمع مدراراً عليه، وهي تصفه بصفات الجود والكرم والشجاعة.

وأيضاً ترثي سميّة زوجها شداد وتقول:[٣]

---

[١] – شاعرات العرب، ص٣. ثم الضبيّ، ٦٣/٣. والخزانة، ٣٠٧/٢.

[٢] – المصدر نفسه، ص ٩٢.

[٣] – ذات المصدر ص ٩٣ ثم الضبى ٦٣/٣ والخزينة ٣٠٧/٢

جفاني الكرى وأنا في الغسق وساعدني الدّمع لمّا اندفق
لفقد همام مضى وانقضى وقد زاد منّي عليه القلق
ومن يدرع الخيل يوم الوغى ومن يطعن الخصم وسط الحدق
ومن يكرم الضيف في أرضه ومن للمنادي إذا ما زعق
لقد صرت من بعده في ضنًى وقلبي لأجل الفراق احترق

نجد هذه الصورة الحزينة لهذه السيدة التي تبكي زوجها وترثية لفقده الجلل عندها ترثية وصف السهر، نزول الدموع، حماية النساء في الحرب، وهزيمة العدو في المعركة، إكرام الضيف المعاناة والمقاساه لفراق هذا الزوج الحبيب.

وأيضاً من رثاء الزوجات لأزواجهنّ نجد رثاء فاطمة بنت الأحجم ترثي زوجها الجراح الخداعيّ وهي تقول في رثاء زوجها:[1]

ياعين بكّي عند كلّ صباح جودي بأربعة على الجراح
قد كنت لي جبلاً ألوذ بظلّه فتركتني امشي بأجرد ضاح
فاليوم أخضع للذليل وأتّقي منه وأدفع ظالمي بالراح
وأغضّ من بصري وأعلم أنّه قد بان حد فوارس ورماح
ولقد تظل الطير تخطف جنحا منها لحون غوارب وصفاح
ومطوح قفر دعوت نعامة قبل الصباح بضمّر أطلاح
جاويت خطبته فظلّ كأنه لمّا نطقت مملح بملاح

استهلّت هذه المرثيّة بحيث دعت عينها بسكب الدّمع حزناً على زوجها الجراح، وقد خصَت الصباح لأنه كان سندها، والآن كان يكثر عدد الأعداء صباحاً، ثمّ تذكر سبب اعتزارها لأنّه كان سندها وقوّتها، وتغيّر الحال الآن؛ إذ صارت تدافع عنها بالراح من يدها، وهي تتذكّر وتواصل ذكر مآثر الفقيد من فصاحة في محافل الناس وكان زعيماً لهم. وممّا يدلّ على صدق هذه الأبيات أنّ فاطمة الزهراء رضي الله عنها كانت تتمثّل بها بعد وفاة أولادها.

[1] – شاعرات العرب ص ٤٧٣

فلعلّنا نلمح من الصور العديدة في رثاء الأزواج براعة اختيار الألفاظ في الدّلالة على المقصود، ثمّ قوّة المعاني التي جاءت موافقة للغرض. وهذه الصور رغم معاره اختبارها منتزعة من الواقع الملموس إذ أخذت الجبل، والجناح الحمية، والرماح الخ.....

وأيضاً، نجد رثاء عاتكة بنت زيد ترثي أزواجها، وهى شاعرة من شاعرات العرب ذات الجمال والكمال والخلق ورجاحة عقل وجزالة الرأي، وقد تزوّجت عدّة أزواج وهم عبد الله بن أبي بكر، وعمر بن الخطّاب، والزّبير بن العوام، وتزوّجت أيضاً من الحسين بن على[١] وقد قالت في رثاء زوجها عبد الله بن أبي بكر وكان أصابه سهم يوم الطائف مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم رماه به أبو محجن فماطلته حتى مات في خلافة ابنه، فقالت ترثيه:

رزئت بخير الناس بعد نبيهم ... وبعد أبي بكرٍ وما كان قصرا
فلله عيناً من رأى مثله فتى ... أكرّ وأحمى في الهياج وأصبرا
اذا شرعت فيه الأسنة خاضها ... إلى الموت حتى يترك الموت أحمدا
وآليتُ لا تنفكّ عيني سخينة ... عليك ولا ينفكّ جلدي أغبرا
مدى الدهر ماغنت حمامة ابكم ... وما طرد الليل الصباح المنورا

في هذه المرثيّة نجد أنّ عاتكة متألّمة وحزينة بهذه الرزية وهذا الحادث المجمع حيث عدّدت مآثر زوجها عبد الله، ثمّ تأخذ على نفسها عهداً بعدم نسيانة وذلك بهطل الدموع ما دام الليل والنهار يكران. والعاطفة هنا رقيقة مؤثّرة على القلوب حزناً.

ومن أصدق ما قيل في رثاء الأزواج:[٢]

لكلِّ اجتماعٍ من خليلن فرقة ... وكلّ الذي دون الممات قليلُ
وإنّ افتقادي واحداً بعد واحدٍ ... دليلٌ على أن لا يدومَ خليلُ

فهذا شعر عقيدة وإيمان في رثاء الزوج الطهور المصون فاطمة بنت الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

---

[١] – مقاتل الطالبين، ص ٤٤.

[٢] – الكامل في الأدب، ٢/ ٣٢٣.

وتمثّلت عائشة عند قبر عبد الرحمن بن أبي بكر بقول متمم بن نويرة:[1]

وكنا كندماني جزيمة حقبة ... من الدّهر حتّى قيل لن يتصدّعا
وعشنا بخيرٍ في الحياة وقبلنا ... أصاب المنايا رهط كسري وتبّعا
فلمّا تفرّقنا كأنّي ومالكاً ... لطول اجتماعٍ لم نبت ليلة معا

حقّاً هذا هو الرّثاء الّذي يدلّ على وفاء نادر من أخ إلى أخ، ومن حبيب على حبيب، نلمس فيه الشعور لجراءته ومن الحزن أشجاه، ومن الذّكرى أنداها، ومن الرثاء الخالد الّذي يتجدّد بتجدّد الأيّام قول لبيد في رثاء أخيه، وقد تمثّلت السيدة عائشة أمّ المؤمنين بذلك كثيراً[2].

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خلفٍ كجلد الأجرب
يتلذّذون ملاذةً ومجانةً ... ويعاب قائلهم وإن لم يشعب
فتعدّ عن هذا وقل في غيره ... واذكر شمائل من أخٍ لك معجب
إنّ الرّزيّة لا رزيّة مثلها ... فقدان كلّ أخٍ كضوء الكوكب
من معشرٍ سنّت لهم أباؤهم ... والعزّ لا يأتي بغير تطلّب
يا أربد الخير الكريم جدوده ... أفردتني أمشي بقرن أعضب

ومن هنا نلاحظ أنّ النفس حظّها عظيم بفقدان الأحبّة من الأبناء والأزواج، هذا الرّثاء الصالح للاسشهاد به على نبل الشعور في كلّ عصر ومصر. وبعد، فإنّ الرّثاء في العصر الأمويّ لا يختلف عن الرّثاء في صدر الإسلام؛ إذ نجد تقارباً كبيراً في الأسلوب والمعانى وتأسّي الناس بالصبر لتأثّرهم بالإسلام الّذي ما يزال غضّاً طريّاً في الصدور، وذلك لقرب العهد بالرسول صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه، وحياة كثير من الصحابة إلى عهد بنى أميّة.

---

[1] – المصدر نفسه، ٢/ ٣٢٣.

[2] – المصدر نفسه، ٢/ ٣٢٥.

المبحث الرابع
اختلاف صور الرّثاء وتطوّرها

كما أسلفنا الذّكر أنّ الرثاء في العصر العباسي يعدّ من أرقى العصور تطوّراً في الشّعر نتيجة لاتّصال العرب بالعديد من الثّقافات الأخرى بعد أن ازادت رقعة الأراضي الإسلاميّة إضافةً إلى ماحدث فيه من تلاقح فكرى وتمازج ثقافي.[١]

ونجد ما حدث في قصيدة الرّثاء في هذا العصر بعض الآثار الثقافية والفلسفية الّتي ظهرت نتيجة لذلك الاتّصال الحضاريّ الذي ذكرناه في البدء. ومثال لذلك الأثر ما نجده في رثاء العتاهية لعليّ بن ثابت حين يقول:[٢]

ألا من لي بأنسك ياأخيا ... وفي ولي أن أبثك ما لديّا
طوتك خطوب دهرك بعد بشر ... كذاك خطوبه نشراً وطيّا
فلو نشرت قواك لي المنايا ... شكوت إليك ما صنعت إليّا
بكيتك ياعليّ بدمع عيني ... فما أغنى البكاء عليك شيئا

يصف الشّاعر في هذا الرثاء يبثّ حزنه ويصف دموع عينه إلى قدر ما ذرف من دموع لم يكفيه شيء من شدّة تألّمه على الفراق. وفي هذا الرثاء اختلاف في صورة المختلفة. وقال أبو العبّاس أنّه أخذ هذا المعنى من بعض الأعاجم حضر ملكاً لهم مات فقال: كانا لمثك أمس أهيب منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس.[٣]

وقد ظهرت صورة كثيرة وجديدة للرثاء لم تكن معروفة قبل هذا العصر، ومن ذلك رثاء المدن حين تنزل بها كوارث النهب والحرق وكان الجيش الذي أحاط ببغداد قبل مقتل الأمين رماها بالجانيق فاندلعت فيها النيران واحترقت بعض الأحياء، وعمّ فيها نهب الأموال وقتل

---

[١] – شوقي ضيف: العهد العباسي الأوّل، ط (٦)، د ت، دار المعارف، مصر، ص١٥٩.

[٢] – ديوان أبي العتاهية، ط (١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤م)، دار صادر، بيروت، لبنان، ص ٤٩١.

[٣] – الزّجّاجيّ: الأمالي، تحقيق عبد السلام هارون، ط (٢)، ١٤٠٧هـ=١٩٨٧م، دار الجيل، بيروت، ص ٩٣.

الأبرياء ممّا جعل كثير من الشعراء يبكونها، وقد غمهم الحزن والأسى من مثل قولهم لبعضهم:[١]

ألا ابك لإحراق وهدم منازل وقتل وإنهاب اللهي والذخائر[٢]
وإبراز ديّات الخدود حواسراً خرجن للاحمر ولا بمازر
كان لم كن بغداد أحسن منظرا وملْهى رأته عين لاه وناظر

كما ظهرت ألوان جديدة للرثاء نضيف أنّ التغيّرات الاجتماعية التي حدثت في ذلك العصر كان لها دور كبير في إظهاره وهو رثاء الصديقات والأصدقاء، وهو رثاء يتفرّد به الشعراء المجان الذين كانوا يتواصلون مواصلة جميلة وينادمون على الشراب منادمة حلوة، فكان أحدهم يفقد خليلته أو رفيقته فتدور به الأرض، ومن ذلك قول بشّار يتفجّع على صاحبته حمده قائلاً:[٣]

أحميد أن ترد المصاب فأننا رهن النفوس بمثل ذاك المورد
مما يعزّ القلب بعدك أننى في اليوم جارك يا حمدة وعد
فلقد اتركمت كبيرة محزونة وأخا إخاء عينه لم يجمد
نفر الزمان ومن حميد لوعة فضل القناع اذ حلْت لمْ توصد

فهذه المرثية توضّح لنا بجلاء التغيرّات الاجتماعية التي طرأت على المجتمع العباسي نتيجة لدخول الكثير من الأجناس الأخرى وانصهارها في بوتقة المجتمع العربي في ذلك العصر، حيث أثّرت هذه الأمم الداخلة بالكثير من عاداتها وأخلاقياتها على عادات وأخلاقيات المجتمع العربي، فظهر لنا مثل هذا اللون في الرثاء الذي يدل على أنه كانت هناك ثمة علاقات حميمة وأواصر الصداقة والتواصل بيمن الجنسيين فهي إلى حد أن يرثي الصديق صديقته عند وفاتها متحسرا عليها. على أن هذا اللون من الرثاء الصديقات بين

---

[١] – مروج الذهب، ٣١٣/٣.

[٢] – اللهى والزخائر: الأموال.

[٣] – ديوان بشار بن برد، شرح محمد الطاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة، القاهرة، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م.

هؤلاء المجان كان موجوداً عند قلة منهم، أما معظمهم فقد كان رثائهم لأصدقائهم أوسع من رثائهم لصديقاتهم[١].

كما ظهرت ألوان طريفة من الرثاء نظنه ما كان موجودا قبل ذلك، وهو أن يرثي بعضهم شيئاً عزيزاً كان يملكه ففقده، وقد يكون هذا الشيء حيوان من الحيوانات الأليفة، فظهر هذا الباب نفسه باب الرثاء آفاق معنوية اخرى جديدة، حين رثى الشعراء والحيوان الأليف، كالكلاب والقطط، وهذا ضرب من الرثاء يكشف عن معنًى إنساني وحضاري، حيث تتولّد العاطفة التي تربط بين الإنسان وبين هذا النوع من الحيوان، والتي تغدو قوية في نفس الإنسان حتى أن فقده للحيوان الأليف يبعث في نفسه الحزن والأسى[٢].

فلا شك ان مثل هذا اللون من الرثاء يتطلب شيئاً من خفة الروح وشيئاً من الألمعية في استنباط المعانى الجديدة التي يمكن أن يرثي بها هذه الحيوانات الأليفة تختلف عن معانى رثاء الآدميّن، ومثل هذا اللون ما نجده في رثاء أبي نواس لكلب صيد له[٣]. ورثاء ابن العلاف لهرّ كان يعتني به.[٤]

أمّا ما ظلّ سائدا من ألوان الرثاء في هذا العصر فهو رثائهم لخلفاء وأمراء ووزراء الدولة العباسية حتى لم يتغير فيه أيضا نشاطاً واسعاً ويمكننا أن نرجع هذا النشاط في هذا اللون أيضا إلى البيئة الأدبية والفنية المترفة والتى كانت سائدة في ذلك العصر.

ومن الصور التي ظهرت مراثي جديدة مثل رثاء الطير الصادح من القمرى والحيوانات المستأنسة وقد جعل القاسم بن يوسف أخو احمد بن يوسف كاتب المأمون ذلك وكده، كما يقول ابو الفرج[٥] الأصفهانيّ فاستغرق أكثر شعره فيه من مثل قوله يرثي شاه:

عيْن إبكى لعنزنا السوداء كالعروس الأدهاء يوم الجلاء[٦]

---

١ – عطوان: مخضرمى الدولين، ص ٣٩٠.

٢ – عزّ الدّين إسماعيل: الشعر العباسيّ الرؤية، ص ٣٧٨.

٣ – المرجع نفسه، ص ٣٧٨.

٤ – راجع البيان في شعر ابن العلافص، جمع وتحقيق صبيح دويق، ط (١)، ١٣٩٣هـ= ١٩٧٤م، مطبعة الجامع – نشر وزارة الربية – طبع مطبعة الجامة، بغداد، ص ٣٢.

٥ – الاغانى (الطبع ساس)، ٥٦/٢٠ انظر: الاوراق للصوليّ، (أبار الشعراء، ص ١٣٦).

٦ – الاماء: السوداء.

وكان لابن الزيّات فرس أشهب لم ير مثله فراهة وحسناً، فوصف المعتصم فراهته فطلبه منه، فلم يسطيع ردّ طلبه، حتى إذا بان عنه رثاه بقصيدة طويلة[١] يقول فيها:

كيف العزاء وقد مضى لسبيله عنا قود عنا الأحم الأشهب[٢]
منع الرقاد جوى تضمنته الحشا وهوى أكابده وهم منصب[٣]

المراثي الجديده مرثيّة[٤] محمّد بن بشر لبستان له عاشت فيه شاه أفلتت لأحد جيرانه، ودخلت البيت فعاثت ببعض صحفة وقراطيسة وفيها يندب روعة هذا البستان قبل أن تعبث به ضارعاً إلى ربه بالشكوى من هذه الشاة وأن ينزل بها عقاب أليم.

ومن صور الرّثاء التى ظهرت وتطوّرت نجد أنّ تغيّراً طرأ على شعر الرثاء، فنجد الشعراء يرثون المغنين والملهين فيضمنون شعرهم صفات لم يعرفها الرثاء من قبل مثل قول الشاعر رثاء إبراهيم الموصليّ:

تولّى الموصليّ فقد تولّت بيتا شات المزاهر والقيان
شبكيه المزاهر والملاهي وشعدهن عاتقة الدنان

وهكذا، بدلاً من رثاء الميت في القديم بأنّ السيوف والخيل والأرماح قد بكته نجد الشعراء ينسبون البكاء للمزاهر والملاهي والدنان. يقول أحد الباحثين المحدثين في هذا المعنى: (إنّ رثاء المغنين وأهل اللّهو يصوّر لنا جانباً من تأثّر الشعر إلى الهزل والعبث حزناً كله بل كانت طائفة منه مجوناً وهزلاً). من ذلك قول إسحق الموصلى يرثي هشيمه الخمارة وكانت جاريته:

أصبحتْ هشيْمة في القبور مقيمة وخلت منازلها من الفتيان
ذا هجر المحب حبيبه دبتْ له في السر والإعلان
حتى بليت لما تريد قياده ويصير سيئة إلى الإحسان

---

[١] – ديوان ابن الزيات، ص ٦.

[٢] – الأدهم: الأسود.

[٣] – الأشهب: من الشهبة وهى السوداء السواد الدنى بصدعة بياض.

[٤] – الجوى: حرقه الهوى: منصب متعب.

فمن كلّ ذلك نجد أنّ الرثاء قد تطوّر، وأصبح له صورة مختلفة فقد تفنّن تفنّناً لم يعرفه الشعر من قبل، وأصبحت له وجهات جديدة خرجت به عن دائرة الأشخاص إلى آفاق أخرى معنوية وحسية وحضارية وإنسانيّة.[1]

[1] – شوقي ضيف: الرّثاء، ص ٤١٢.

المبحث الخامس

الخصائص الفنية في شعر الرثاء

عند المرأة في العصر العباسي

يعدّ عصر بني العّباس أوضح العصور الأدبية فكراً، وأرقاها علماً، وأبدعها صورة، وأظرفها وأبهاها منظراً؛ ذلك لأنّ الثّقافات الأجنبيّة من فارسية ورومية وسريانية. قد اختلطت الثقافات الأجنبيّة بالثّقافات الإسلاميّة والعربية، ثمّ دخلت عناصر أخرى غير عربيّة فكان نتاجها هذا التوسع في بحور الشعر، وفي تنويع فنون واتساع مجالاته. ونألف في عصر بني العباس الصور الرثائية نفسها التى نجدها في عصر بنى أميّة اللهمّ أنّ الصور في عصر العباسيين كانت أوسع مدًى وأبرز آفاقاً وألواناً. وقد كان شعراء بنى العباس أذكياء في التوفيق بين موقفين متناقضين كالتعزية والتهنئة.

أيضاً نجد صور الرثاء في هذا العصر تدلّ على الوصف المهيب، وهى صورة قليلة؛ لأنّها لم تجرح الاحياء بالاموات اوتهين بالاموات والأحياء بالاضافة إلى ان هذه الصورة بديعة خلقت في سماء الرثاء.

وصور الرثاء عند المرأة العباسية لها خصائص فنية وهى رثائيه مشرقة تحمل في طياتها الصبر والسليم وهى صورة معنوية ربما كانت أبلغ الصورة الحسية المشاهدة وتتنوع الصورة بتنوع حجم الخطب النازل والبلاء الفادح.

وعلى الرغم من تجلي فكرة الانقاء ووضوح الرؤيا أمام شعر رثاء النساء في هذا العصر فنجد الصورة الفنية لشعرهن انهن لايملكن الا محاولات ضئيلة في مدافعة الموت والهروب منه متمثلة في نواحى عديدة ولكنها تتضاءل وتصغر أمام الموت وجبروته وسيطرته. ومن الشّعراء الذين حاولوا مدافعة الموت واستيفاء أسبابه بالحذر والحيطة. وهذا يثير استفهام ودهشة تجاه الموت الذي لحق بفلذات أكبادهن وطواها رغم الحيطة والحزر.

ولا يمكننا أن نجعل الصورة الفنية في العصر العباسى ان الدافع الاساس هو الطابع العام ومبعثه الخاص هو الحزن الشديد والألم على المرثي، وأن العامل النفسي هو الباعث الأساس والمولد الحقيقي لقصائد الرثاء في هذا العصر بالرغم من افتتاحها بفقدان الأحبّة أو الآباء أو الإخوان أو فلذات الأكباد، ورغم عبرة الحسرة والأسى التي نحسها في بداية القصيدة إلا أنّه سرعان ما يرجع الأمر لله عز وجل وينوب إليه.

كما في قول أعرابيّة ترثي ابنها قيل لها ما عزاءك؟ قالت إنّي فقدى اباه امى كل فقد سواه وان مصيبتي به هونت على المصائب بعد ثم انشأت قول:

كل من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر
كنت السواد لناظرى فعمى [1] عليك الناظر
ليت المنازل والديا ر حفائر ومقابر
إنّي وغيرى لا محالة حيث صرت لصائر

وأيضاً، للشعر العباسي تكثر فيه الالفاظ: الرسول، النّبيّ، المؤمنين، القرآن، الإسلام، الضّلال، الكفر، الهدى، الحلال، الحرام، الحق، العدل، الباطل، الدين، الوحي، الفريضة، الإمام، الأحزاب، الخلافة.

ولهذه المعاني في الرثاء اذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو باني هذه الأمة وسيد البشرية، وأن تكون الأمة بعده على العهد. فالمعاني التى نشهدها في شعر الرّثاء وتنوزّع على ثلاثة عناصر رئيسيّة:

- هول المصيبة وشدّتها، وإشراك عوالم الإنس والجنّ والأرض والملائكة بها.
- الخسارة الكبرى انقطاع الوحي من الأرض وهو أكبر خصائصه (وقل إنّما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليّ)

[1] – ارغبة الامل، ٨/ ١٧١.

- الثبات على المبدأ بعد وفاة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، وفي ذلك تقول صفية بنت عبد المطلب عنه:

أفاطم بكّي ولا تسأمي لصحبك ما طلع الكوكب
هو المرء يبكي وصف البكاء هو الماجد السيد الطيب
فأوحشت الأرض من فقده وأي البرية لاينكب[1]

أمّا فراقه عليه الصلاة والسلام:

أورث القلب ذاك حزنا طويلا خالط القلب فهو كالمرعوب
ليت شعري كيف أمسي صحيحا بعد أن بين بالرسول القريب
أعظم الناس في البرية حقا سيد الناس حبه في القلوب
فإلى الله ذاك أشكو وحسبي يعلم الله حوبتي ونحيبي

نجد أن في هذا الرثاء تصف صفية بنت عبد المنطلب حزنها على سيد البشرية بان حزنها حزنا طويلا ثابت في قلبها لأن حبها للرسول ثابت في قلبها ولكن تحتسب للمولى عز وجل لأنّ الله هو الواحد الذى يعلم بكل ما حل بها.

وهذه عاتكة بنت زيد شاعرة قريش ترسم الحزن وسما بأبياتها:

أمست مراكبة أوحشت وقد كان يركبها زينها
وأمس تبكى على سيد ترد عبرتها عينها

وإليك مرثيته وحاضنته أم أيمن ترسل دمعتها شعراً ناطقاً:

حين قالوا الرسول أمسى فقيدا ميتا كان ذاك كل البلاء
عين جودي فإن بذلك للدمع شفاء فأكثري م البكاء
وابكيا خير من رزئناه في الدنيا ومن خصه بوحي السماء
بدموع غزيرة منك حتى يقضي الله فيك خير القضاء

[1] – الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٢٨/٢

فلقد كان ما علمت وصولا ولقد جاء رحمة بالضياء
ولقد كان بعد ذلك نورا وسراجا يضيء في الظلماء
طيب العود والضريبة والمعدن والخيم خاتم الأنبياء[1]

المرأة في حرارة عاطفها أصدق تعبيراً عن لوعة الفراق وحرارة المصيبة من غيرها، فلذلك كانت نماذج معظمها للقريبات الثاكلات.

وأيضاً من الصبر على المصائب نجد الخنساء تتصبر على مصائبها التى أحاطت بها ولم تجد منها مهرباً. تقول:

سأحمل نفسي على آلة فإما عليها وإمّا لها
فإن تصبر النفس تلق السرور وإن تجزع النفس أشقى لها

وتقول لها:

تذكرى صخرا وقد حال دونه صفيح وأحجار وبيداء بقلع
أرى الدّهر يرمي، ما تطيش سهام وليس لمن قد غالة الدهر مربع

وتقول أيضاً:

يا صخر قد كنت بدراً يتسضاء به فقد ثوى يوم متّ المجد والجود
فاليوم أمسيت لا يرجوك ذو أهل لمّا هلكت وحوض الموت مورد[2]

فمن ذلك يتّضح لنا صورة استسلام الشاعرة واقتناعها بالموت وأنه حق واقع لا محالة منه مما يدل ايضا على اليقين وقوة الإيمان، وبرسوخ فكرة الموت وقضية الايمان بالقضاء والقدر لأنّ الشاعرة القوية الإيمان ترى الموت واقعاً ومصيراً لا بدّ من وروده. وظهرت فكرة الاحتساب من خلال أشعار الرثاء المتمثلة في كظم الغيظ والحزن ومواره الجزع طلباً للثواب وجزيل الأجر، ومن ذلك قول أعرابيّة ترثي ابناً لها:

[1] – أبو سعد: الطبقات الكبرى، ٢/ ٣٣٢.
[2] – ديوان الصنوبري، ص ٣٣.

هو ابني أمسى أجري وعزنى على نفسه رب إليه ولاؤها

هذه الأمّ المكلومة تلملم أصداء الفجيعة وتبعدها بعيدا عنها ورضى بالصبر الذى آل إليه ابنها بحبل الصبر والايمان بدلاً عن الحزن، وهي مدركة تماماً الثواب والأجر هما اللذان يظفران بها إلى الحسرة والندم، والجزع[١]. وقد خلت قصائد الرثاء في هذا العصر من اللهجات.

ويمكننا أن نجعل ختام هذا المبحث وقفة متأنية أمام ألفاظ شاع استعمالها منذ العصر الجاهلي وإلى العصر العباسي والعصور التى تليه، هذه الألفاظ تكررت بتكرار الأحداث وطرقها. ومعظم الشعراء الذين فجعوا من شدة المصائب التي حلّت بهم، واستخدامها جاء مقترناً بشدّة الجزع وعمق المصاب بل جاء مؤكّداً كذلك. ومن هذه الألفاظ ب(الكبد، الفؤاد، العين، الأحشاء).

فالشاعر عندما يسمع نعي شخص أو يعيش لحظات فراقه المؤلمة، فهو بلا ريب تتصدّع كبده وتقرح عينه وينفطر فؤاده وتتمزق أحشاؤه بهذه الآثار تبدأ مع بداية فناء فقده ثم يتبعها الأثر الناتج عنها لاحقا، مثل فقد الابن فقد يكف بصره بفعل تزارفه الدمع السجين، وقد ينفطر قلبه بان يفارق الحياة ابان موت فقيده ومن ثم ما ورد عن ذكر الشيباني في ذكر امرأة من هزيل مات غلام لها فقالت في رثائه.

الا تلك المسرة لا تدوم ولا يبقي على الدهر النعيم
ولا يبقي على الحدثان غفر بشاهقة له ام رءوم[٢]

ثم أكبّت عليه مرّة أخرى فلم نقطع نحيبها حتّى فاضت نفسها، ثمّ قالت أعرابية مات ابنها:

فإن أحتسب أؤجر وإن أبكه أكن كباكية لم يحيى ميتاً بكاؤها[٣]

فهي بلا شك تفضّل الصبر والاحتساب والأجر على الجزع والحزن.

---

[١] – ديوان الخنساء.

[٢] – ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٣/ ١٩٠.

[٣] – المرجع نفسه، ص ١٩٠.

الخاتمة

تخلص الدراسة إلى أنّ الدّافع الأساسيّ والمحرّك الأصليّ في ظاهرة الرثاء عند النساء هوالحزن المطلق ويهدف هذا البحث إلى إبراز ملكة المرأة في قول الشعر عامة وتفوقها على الرجل في غرض الرثاء كما يهدف البحث إلى جمع ما تناثر من قصائد الرثاء في كتب الأدب.

ويهدف البحث إلى أن الرثاء عاطفة يحسّ بها الشاعر عند فقد الأحبة، فيصوّر لنا العاطفة بأقوى التّعابير والألفاظ، ويهدف أيضاً إلى أنّ رثاء المرأة أقوى من رثاء الرّجال؛ وذلك لغلبة العاطفة عند المرأة في مثل هذه الأمور. بل إنّنا نجد بكاء المرأة يكون عادة في فقد أحبّتها أكثر من بكاء الرجل؛ لسموّ هذه العاطفة التي تظهر في رثائها، فنجد الكلمات تنعث من صميم قلب صادق، عبّرت عن حزن جلل وفقد عظيم من أب أو أخ أو ابن أو حبيب أو أهل أو أقارب.

كما أثبتت الدّراسة تصنيف الألفاظ المستعملة وسهولتها ومناسبتها تماماً لموضوع الرّثاء؛ فهي ألفاظ بعدت عن الوحشية والغرابة والغموض وهي تنساب في سهولة ويسر، وكذلك وقفت الدراسة على الطرق التى سلكها الشعراء في التعبير عن خلجات النفس وماهيّة استقبالهم للخطوب والمصائب، كما بيّنت الدراسة مدى التّحوّل في افتتاح قصائد الرثاء وتشير إلى الرحلة والرفيق واستئناس البدء بما يشغله من مصاب وفجيعة وأيضاً أشارت إلى المعاناة التي ألمّت به والهول الذي أحاط به من كل جانب.

وكذلك أثبتت الدّراسة السمات والخصائص الفنية التي سبغت قصائد الرثاء عند النساء في العصر الجاهلي حتى العباسي، فنجد الرثاء في العصر الجاهلي عند النساء من الفنون التي جوّد فيها الشعراء؛ لأنّه تعبير عن خلجات قلب حزين، وفيه لوعة صادقة وحسرات أخرى؛ ولذلك فهو من الموضوعات القريبة إلى النفس؛ لأنّ الرثاء الصادق تعبير مباشر قلّما تشوبه الصنعة والتكلف، والحياة الجاهلية حياة حرب ودماء وغارات يسقط إثرها القتلى، فيبكي الأهل والأصحاب قتلاهم، ويثرون بكاءهم مع قبائلهم يؤجّجون أحزانهم فيدفعونهم

لشحذ سيوفهم استعداداً لجولة جديدة تطفئ نار غيظهم. ونجد في شعر الرّثاء ثلاثة أنواع أو أساليب، منها: النّواح والبكاء والعويل على الميّت، وكانت عادة النّساء في الجاهلية لطم الخدود أو قطع الجلود أو النعال، ويُعرف هذا الضرب بالندب. وقد يرى عن النساء في هذا الضرب وصف الربيع بن زياد إحدى النّائحات[١] :

تجد النساء حواسراً يبكينه ... يلطمن أوجههنّ بالأسحار
قد كنّ يخبأن الوجوه تستّراً ... فاليوم قد أبرزن للنّظّار
يضربن حرّ وجوههنّ على فتًى ... عفّ الشّمائل طيّب الأخبار

وقد برعت النّساء في الرّثاء، ولعلّه الفنّ الوحيد الذي أجادت فيه المرأة، ومن يقرأ الشعر الجاهليّ يعجب لكثرة الشواعر اللائي أنشدن أشعاراً في رثاء القتلى أو التّحريض على الثّار.

وقد بلغ من اشتهار المرأة بالرّثاء وافتخارها بفضائل قتلاها ومكانتهم أن صارت تفاخر غيرها بعظم مصيبتها والتفاخر بقتلاها كما فعلت الخنساء حين فاخرت هند بنت عتبة وعاظمتها بأنّها أكثر مصيبة؛ فقد فاخرتها بابنها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية. وقد قالت في ذلك: [٢]

أُبَكِّي أبي عَمراً بعينٍ غزيرةٍ وَصِنوَيَّ ... قليلٍ إذا نامَ الخَلِيُّ هجودُها
والله لا أنسَى مُعاويةَ الّذي ... له من سَراةِ الحَرّتَينِ وُفُودُها
وَصَخراً ومن ذا مثلُ صخرٍ إذا غدا ... بساحتِهِ الأبطالُ قزمٌ يَقودُها

وفاخرتها هند بأبيها عتبة، وعمّها شيبة، وأخيها الوليد؛ فهي أعظم مصيبة حيث تقول:[٣]

أُبَكِّي عميدَ الأبطحينِ كِليهما ... ومانِعَها من كلِّ باغٍ يُرِيدُها
أَبِي عُتبَةُ الخيراتِ ويحكِ فاعلمي ... وَشَيْبَةُ والحامي الذِّمارَ وليدُها

---

[١] – شرح الحمساة للمرزوقي ج ٢ ص ٩٩٥ – ٩٩٦ وكذلك وصف مهلل بن ربيعة مناحة على مقتل كليب شعراء النصرانية ج ١ ص ١٦٢ وديوان لبيد بن ربيعة في موت عمه ابي براء وديوان لبيد ص ٥١ – ٣٣٢

[٢] – شرح ديوان الخنساء ص ٥٢ – ١٥٣.

[٣] – الاغاني، ٤/ ٢١٢.

أولئِكَ آلُ المجدِ من آلِ غالِبٍ وفي العِزِّ منها حين يُنْمَى عديدُها

لا شكّ أن المرأة أشدّ من الرجل حزناً، وأرقى عاطفةً، وأكثر جزعاً، وأعظم لوعة. طبيعتهنّ أقرب إلى الرّثاء والبكاء واللوعة والأسى، لذا كان القدماء من نقّادنا قد فطنوا إلى أنّ الرثاء أصدق فنون الشّعر العربي وأشجاها، وذلك لصدوره عن تجربة حقيقة ومعناه واقعية تفتتح بها عبارة ليس لنا ألاّ نقولها وقلوبنا تحترق[١].

ونلاحظ من خلال دراسة الكتب الأخرى ككتب التاريخ أنّ شعر النساء ليس بقليل، وهو يؤلّف مجموعة كبيرة لها خصائصها ومميزاتها الفنية. أمّا الشّاعرات أنفسهنّ فإنّ المديح لا يخلو منهنّ عهد من العصر الجاهلي، وكان منهن عدد غير قليل، فقد روى أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم سمع شعر بعضهنّ كالخنساء لبنى عمرو حين كان يستجير نظيمها، وهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، وقتيلة بنت النضر الّتي وجّهت إليه صلّى الله عليه وسلّم عتابها على قتل أبيها[٢] وأم كلثوم الّتي امتدحت الإمام عليّ عليه السّلام[٣] وأيضاً عمّات الرسول صلّى الله عليه وسلّم وكنّ شاعرات فرثين أباهنّ وهو في مرض موته؛ لأنّه طلب ذلك منهنّ.[٤]

ويقول أبو العبّاس: كانت الخنساء وليلى بائنتين في أشعارهما، متقدمتين لأكثر الفحول، ورب امرأة تتقدّم في صناعتها وقلّ ما يكون ذلك.

ثمّ ذكر أنَّ الجاحظ كان يحضّر ذهنه، ويجمع نفسه حين تحدّثه هاشمية جارية حمدونة، مخافة أن تودد عليه ما لا يفهمه، لبعد غورها واقتدارها. وكان بشّار يقول: لم تقل امرأة شعراً إلاّ تبيّن الضّعف فيه، فقيل له: أو كذلك الخنساء؟ فقال: تلك كان لها أربع خصى[٥]. وقد ذكر ثعلب بيتاً لها فيما سماه الأبيات الغرّ [واحدها أغر]، وهو ما نجم من صدر البيت بتمام معناه دون عجزه، وكان لو طرح آخره لأغنى أوّله بوضوح دلالته، وهو:

---

١ – الجاحظ: البيان والتبين، ٢/ ٣٢٠. ونهاية الأدب، ٥/ ١٦٥.

٢ – ديوان ابن الشّجريّ، ص ٨١ – ٨٢.

٣ – قتيلة بنت المضر . سيرة ابن هشام، ١/ ٥٣٩. وحماسة البحتريّ، ص ٢٧٦.

٤ – حماسة أبي تمّام، ١/ ٢٢٢. والسّيرة، ١/ ٥٣٧.

٥ – Nichols on , p. 89

وإنَّ صخراً لتأتمَ الهداة به كأنّه علمٌ في رأسه نار

وذكر ليلى الأخيليّة بيتاً هو:

قوم رباط الخيل حول بيوتهم وأسنة زرق يخللْن نجوما[1]

وبعد، فإنّ رثاء المرأة لابنها وزوجها وأخيها وقومها دليل على سمو خلقها وعلو مكانتها عند العرب في الجاهلية؛ لأنّها في نظرهم جديرة برثاء الموتى والإشادة بفضلهم. وأغلب الظنّ أنّ خلوّ مراثيهنّ من المقدّمة الغزليّة صدًى لأنوثتهن، فإنّ غزلهنّ نادر ومستور.

أمّا ندرة الحكمة في رثائهن فمرجعها إلى أنّهنّ ينصرفن إلى النواح، ويستغرقن في الرثاء لا يلوين إلى غيره، فلا يخلطن به سواه كما كان الرجال يفعلونها. ولعلّ مرد ذلك أيضاً إلى أنّ المرأة تنجح في التخصيص، والرجل يجنح إلى التعميم، فنظرته شاملة ونظرتها جزئية، ونظرته موضوعية مجردة ونظرتها فردية محددة، لهذا لم تمدّ نظرها إلى ماوراء الفاجعة من عبر وعظات ومفارقات.

يقول بعض الباحثين أنّ المرأة ـ بوجهٍ عامٍّ ـ (تجذب انتباهها حادثة ما أكثر من فكرة ما، والرّجال يهتمّون بعلاقات الأشياء أكثر من اهتمامهم بالأشياء ذاتها، وهذا رأي يتّفق مع رأي جون ستيورات مل؛ لأنّه رأى أنّ المرأة تفكر في الأشياء على أنّها جزيئات منفصل بعضها عن بعض، لا تفكر فيها على أنها مجموعات متصله مترابطة)[2]. ثمّ إنّ المرأة أقوى وأحدّ من الرجل عاطفة، وعاطفة حزنها تتجلّى في هلعها وجزعها ونحيبها وصياحها وليس هذا مجال للحكمة، لأنّ الحكمة وليدة العقل والتفكير، وهذه العاطفة الملتهبة تقضي على العقل والتفكير.

ولقد تزعّمت الخنساء شواعر الجاهلية والاسلام في الرثاء، لكثرة ما رثت أخويها، ولجودة مراثيها وحرارة عاطفتها. وقد أنشدت الخنساء النابغة بسوق عكاظ بعد أن أنشدت

---

[1] – ثعلب: قواعد الشّعر، ص ٣١.

[2] – رياض عسكر: نفسية المراهق، ص٤٦. والمرأة في الشعر الجاهلي

الأعشى وحسان، وكانت له قبة حمراء تأتيه فيه الشعراء فتنشده، فقال لها: ما رأيت ذات مثانة أشعر منك. فقالت: ولا ذو خصيتين[1] وروي أنها أنشدته قصيدتها التي مطلعها:

(قذًى بعينيك أم بالعين عوّار)، حتّى انتهت إلى قولها:

وإنَّ صخراً لتأتمّ الهداة به كأنّه علمٌ في راسه نار
وإنّ صخراً لمولانا وسيّدنا وإنّ صخراً لما نشتو لنحّارُ

فقال لها: لولا أنّ أبا بصير ـ يريد الأعشى ـ أنشدني آنفاً لقلت إنّكِ أشعر الجنّ والإنس، أنتِ والله أشعر من كلِّ ذات مثانة. فغضب حسّان وقال: والله لأنا أشعر منك ومنها ومن أبيك ومن جدّك.[2] ويظهر أنّ حسان أراد فيما بعد أن يهوّن من حكم النابغة، فقد روي عنه قوله: جئت نابغة بنى زبيان فوجدت الخنساء حين قامت من عنده، فأنشدته فقال: إنّك لشاعر وإنّ أخت بني سيلم لبكاءة[3].

وقد اعترف بعض القدماء للخنساء بإجادة الرّثاء، واعترفوا بقدرة بعض النساء أيضا على إجادة الرثاء. ولا تقتصر إجادتها على المعاني وما فيها من صور مادية بارزة، بل يتناول الألفاظ أيضاً، فأكثر ما يكون لفظها في صيغ المبالغة التي تترك أثراً محسوساً في النفس. فمن تعابيرها الخاصة قولها: شهّاد أنديةٍ، حمّال ألويةٍ، هبّاط أوديةٍ، نحّار، مفوار، مسعار، أغرّ، أبلج، أو أغرّ، أو أشهر، إلى غير ذلك من أمثلة المبالغة. ولها تعابير فخمة تتضمن الغلوّ في نفسها، وقد تختتم رثائها بالوقوف على القبر الذي ضم رفات أخيها، فما تدرى كيف تظهر له تلك الغمّة التى حلت عليه بحلول صخر فيه: ماذا يوارى القبر من كرم أو من خير!

يتبيّن لنا من كل ذلك أن رثاء النساء عاطفي بحت لا يشوبه تكلف، ولا يرتفع بها الفكر إلى المعاني الحكيمة التي نجدها في رثاء الرجال، فهي حزينة لا تتعزّى، وضعيفة لا تملك أن تعيظ نفسها، ونادبة تهيج البواكي.

---

[1] – الشعر والشعراء، ١/ ٣٠٢.

[2] – الأغاني: ٩/ ١٥٦. و٨/ ١٨٨. وبلاغات النّساء، ص ١٦٩. وفي الشّعراء، ص ٣٠٢. وحساناً غضب هذه الغضبة لمّا فضّل النابغة الأعشى عليه. **اللّغة**: من معاني المثانة: موضع الولد من الأنثى.

[3] – الأغاني، ٤/ ١٦٧.

وختاماً، الحمد لله الذي أعانني على إكمال بحثي هذا، واتمنّى من الله العليّ القدير أن أكون قد وفّقت في ما اخترتُ من هذه الدراسة التي اتمنّى أن تكون لبنةً في الدراسات الأدبيّة والنقدية إن شاء الله.

ومن أهمّ النّتائج الّتي توصّلت إليها أنّ الدّافع الأساسيّ والمحرّك الفعلى في ظاهرة الرثاء عند النساء هو الحزن المطلق الّذي ينبعث من وجدان المراة الممزّق بالألم ومشاعر ضعفها ووهنها، فهى تتحرك مخلّفةً وراءها كلمات تنبعث من قلب صادق عبرت عن حزن جلل وفقد عظيم.

فنجد أنّ الرثاء تطوّر عبر العصور، ففي العصر الجاهلي كان صادقاً وذلك لأنّ البيئة كانت فطريّة وبسيطة، وكان الشعراء يغنّون بالصورة الواقعية دون إغراق ودون تفصيل للجزئيات.

أمّا العصر الإسلاميّ، فقد حدث فيه تطوّرٌ ملحوظ يتجلّى في النّواحي الاجتماعية والحضارية والفكرية، وتغير المفاهيم الإنسانيّة. ولعلّ أكبر عامل هو الإسلام الذي أضفى على شعر الرّثاء صبغة السّهولة والوضوح وعدم التّكلّف، وأضاف معاني جديدة ظهرت في معاني الرّثاء مثل ظهور فكر العقاب، الثواب، الأجر، الاحتساب وغيرها. كما صبغت بصبغة جديدة يغلب عليها التّهذيب الأدبيّ.

أمّا العصر العباسيّ فقد شهد تجديداً في الموضوعات والمعاني والأساليب وغيرها بسبب تنوّع الأفكار، وامتزاج الشّعوب. ونجد الشّعر الرثائيّ نشط نشاطاً واسعاً؛ إذ لم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد مشهور إلاّ أبّنوه تأبيناً رائعاً، كما صوّروا محنة الأمّة والجيوش في وقائعهم حسرة وفزعاً.

وأخيراً، أسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يفتح به سبيلاً لكلّ باحثٍ عن حقيقة، وأستعيذه من الغفلة. فإن أخطأتُ فمن نفسي، وإن أصبت فمن الله ومنه فضله. وأرجو أن تكون هذه الوقفة متأنّيه أعطت هذه العصور حقّها هذا رجاء، ولكنّني لستُ جازمة أنّه تحقّق، فالأمر متروكٌ للقاري الكريم ولكل من يطّلع على هذه الرّسالة. والحمد لله أوّلاً وأخيراً.

Abstract

The study abstracted that the main force that move pathos phenomenon in ladies is absolute sadness, this study aim to illustrate women power in saying poetry in general, she is also distinct the man in pathos feelings. Also the main aims of this study is to collect pathos poems from literature books.

The study aim to discuss the feeling of pathos that let senses of who lost their lovers. Then show the meaning of these feelings and translated into words, also aim to illustrated that women has great feelings more than men.

In the ordinary life the women has senses and feelings and nearly to be engaged more than the man, but in pathos this feeling will be more increased , the women cry with tears when she lost her lovers and relatives more than the man.

The study classified the words used in pathos easily and suitable , away of ambiguity , strange and beastly words in easily and flexibility. Also the study discuss the methods ways of how poems choose expressions, the effectiveness of pathos and disasters in their poems.

The study select some previous studies that deal with pathos poems of women from just as darkness era up to El Abasi era. notice that in the darkness era, the women say poems in pathos with really and trustily feelings. Because trust pathos in direct expressions is a real pathos poems and nearly to hearts.

ثبت المصادر والمراجع

١) القرآن الكريم
٢) البيان شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح محمد ﷺ : جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري، تحقيق حسن أبو ناجي، مؤسّسة علوم القرآن، ١٤٠٤هـ=١٩٨٤م.
٣) ابن الأثير: تحقيق حنفي محمد شرف، القاهرة ١٩٥٨م.
٤) أخبار الشعراء المحدثين: القاهرة، دار المسيرة.
٥) الاستيعاب في معرفة الأصحاب: لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد البر القرطبي المتوفي ٤٦٣ هـ، تحقيق الشيخ علي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٤ هـ ١٩٩٥ م.
٦) الإسلام والشعراء: د. سامي مكي العاني، عالم المعرفة.
٧) الإصابة،:أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفي ٨٥٢ هـ، مكتبة النهضة، مصر.
٨) الأغاني: للنسائي بن طيفور، طبعة مصر، ١٩٠٨ م.
٩) الأمالي: أبو علي القالي البغدادي، بيروت، دار الكتب العلمية.
١٠) الأدب العربي: كارل بروكلمان، نقله إلى العربية عبد الحليم، مصر، دار المعارف، دون تاريخ.
١١) الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين، دار المطبعة المصرية، ١٣٥٧هـ ١٩٣٨م.
١٢) الأيام: طه حسين، القاهرة، دار المعارف، ١٩٣٩م.
١٣) أيّام العرب في الجاهلية والإسلام.
١٤) بحوث في الأدب الجاهليّ: إبراهيم علي أبو الخشب، أحمد عبد المنعم، بيروت.
١٥) بلاغات النساء: لأبي الفضل أحمد بن طاهر، طبعة مصر، ١٩٠٨ م.
١٦) بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب: للألوسيّ السيد محمود شكرى الالوسي البغدادي، صححه محمد بهجت الأثري، مكتبة محمد الطيب، دار الكتب الحديثة.
١٧) البيان والتبيين: الجاحظ عمرو بن محبوب الجاحظ.
١٨) التطور والتجديد في الشعر الأموي: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة.

١٩) تاج العروس: السيد محمد بن محمد الحسين الزبيدى الشهير بمرتضي، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٨٧ م.
٢٠) تاريخ آداب اللغة العربية، جورجي زيدان.
٢١) تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات: شوقي ضيف، دار صادر.
٢٢) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان: نقله للعربية عبد الحليم النجار، دار المعارف، مصر، ١٩٦١ م.
٢٣) تاريخ البقولي.
٢٤) تاريخ الشعر السياسي: أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٦ م.
٢٥) تاريخ الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، مصر ١٩٧١ م.
٢٦) التثنية والدر للمسلطي.
٢٧) التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول: مصطفي مجاهد بهجت، الجمهورية العراقية، وزارة الأوقاف، ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م.
٢٨) جمهرة خطب العرب: أحمد زكى صفوت، القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، ١٣٥٢ هـ – ١٩٩٣ م.
٢٩) جوهر الكنز: ابن الأثير، تحقيق محمد، النّاشر دار المعارف، الإسكندريّة.
٣٠) حماسة أبي تمام: تحقيق عبد العزيز محمد شاكر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٣م
٣١) حماسة البحتري: اختيار الوليد بن عبيد البحتريّ،٠ تحقيق الأب لويس شيوخو، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧ م.
٣٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي: أحمد محمد الحوفي، مصر، مكتبة نهضة مصر.
٣٣) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب على شواهد شرح الكافية: الشيخ عبد القادر ابن عمر البغدادي، الطبعة الأميرية، بولاق، دون تاريخ.
٣٤) الخنساء شاعرة بنى سليم: محمد جابر عبد العال.
٣٥) الخنساء في الجاهلية والإسلام، بدري معبدي.
٣٦) الخيل العربية في الشعر الجاهلي: أحمد محمد الحوفي، مكتبة القاهرة، نهضة مصر.
٣٧) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور: لزينب فواز.

٣٨) دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين الخوارج والشيعة: أحمد محمد جلي، الرياض، مركز الملك فيصل، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
٣٩) ديوان الأعشى ميمون بن قيس الأعشى الكبير.
٤٠) ديوان أبي العتاهية: ط (١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م)، دار صادر للطباعة والنّشر، بيروت.
٤١) ديوان أوس بن حجر: تحقيق يوسف محمّد، ط (١٩٧٦م)، دار صادر للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان.
٤٢) ديوان بشّار بن برد: شرحه محمّد طاهر بن عاشور، القاهرة، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م.
٤٣) ديوان الخنساء: دراسة وتحقيق إبراهيم عوضين، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
٤٤) ديوان الخنساء، طبعة بيروت، دار صادر للطّباعة والنّشر، ١٣٧٧هـ = ١٩٥٨م.
٤٥) ديوان شعر الخوارج: جمع وتحقيق إحسان عبّاس، بيروت، ١٩٥٨م.
٤٦) ديوان الصّنوبريّ: أحمد محمّد بن الحسن، تحقيق إحسان عبّاس، بيروت، دار الثّقافة، ١٩٩٧م.
٤٧) ديوان طرفة بن العبد: تحقيق علي الجندي، بيروت، دار الفكر العربيّ.
٤٨) ديوان عبيد بن الأبرص: تحقيق حسن نصّار.
٤٩) ديوان عبيد بن ربيعة العامريّ: بيروت، دار صادر للطّباعة والنّشر، ١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م.
٥٠) ديوان ليلى الأخيليّة: دار الكتب المصريّة، ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م.
٥١) ديوان الهذليّين: دار الكتب المصريّة، ١٩٤٥م.
٥٢) راجع البيان بن العلاف: جمع وتحقيق دويق، نشر وزارة التّربية، طبعة الجامعة، بغداد، ١٣٩٣هـ = ١٩٧٤م.
٥٣) الرّثاء: شوقي ضيف، طبعة القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٥م.
٥٤) رثاء الأبناء: صالح مخيمر، طبعة الأردن، مكتبة المنار.
٥٥) الرّثاء في الشّعر العربيّ أو جراحات القلوب: محمّد حسن أبو ناجي، لبنان، مكتبة الحبان، ١٤١١هـ = ١٩٨١م.
٥٦) رياض الأدباء أنيس الجلساء.

٥٧) زهر الآداب وثمر الألباب: أبو إسحق إبراهيم بن عليّ الحصريّ القيروانيّ، تحقيق البجاوي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربيّة، ١٩٥٣م.
٥٨) السّيرة النّبويّة: عبد الملك، تحقيق جمال ثابت محمّد إبراهيم، القاهرة، ١٩٨٥م.
٥٩) السّيرة النّبوية: ابن هشام، تحقيق مصطفى السّقا وآخرون، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٥م.
٦٠) شاعرات العرب في الجاهليّة والإسلام، تحقيق وتنقيح عبد القادر مايو، القاهرة، ١٩٣٤م.
٦١) شاعرات العرب: بشير يموت، تحقيق عبد القادر محمّد، طبع مكتبة الأهليّة، بيروت، ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م.
٦٢) شرح البلاغة.
٦٣) شعر الدّولة الإسلاميّة في عصر النّبوّة والخلفاء الرّاشدين: عبد الله حامد الحامد.
٦٤) شرح الحماسة: التّبريزيّ، عالم الكتب، بيروت، دون تاريخ.
٦٥) شرح الحماسة: المرزوقيّ، نشر أحمد أمين وعبد السّلام محمّد هارون، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، ١٩٦٨م.
٦٦) شرح ديوان الخنساء: تحقيق إبراهيم عوضين، مكتبة السّعادة، ١٤٠٥هـ = ١٩٥٨م.
٦٧) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامريّ: تحقيق إحسان عبّاس.
٦٨) شرح مقامات الحريريّ: الشرتيسي، القاهرة، مطبعة بولاق، ١٣٠٠هـ.
٦٩) نشر نهج البلاغة: ابن أبي الحديد، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار إحياء الكتب العربيّة، ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م.
٧٠) الشّعر وأيّام العرب في العصر الجاهليّ: عفيف عبد الرّحمن.
٧١) الشّعر الجاهليّ وخصائصه وقضاياه الفنيّة، إبراهيم عبد الرّحمن، القاهرة، الدّار القوميّة للطّباعة والنّشر.
٧٢) شعر النّصرانيّة: لويس شيخو، بيروت، دار المشرق، ١٩٦٧م.
٧٣) الشّوقيّات: أحمد شوقي، دار الفكر.
٧٤) صبح الأعشى: أبو العبّاس أحمد بن عليّ القلقشنديّ، القاهرة، دار الكتب، ١٩٦٣م.
٧٥) الطّبقات الكبرى: ابن سعد، بيروت، دار صادر للطّباعة والنّشر، ١٩٥٨م.

٧٦) طبقات المرثيين: ابن سلام.
٧٧) العصر العبّاسيّ الأوّل: شوقي ضيف، مصر، دار المعارف، ١٩٧٣م.
٧٨) العقد الفريد: أحمد بن عبد ربّه، تحقيق عبد المجيد التّرجينيّ، دار البرّ، مكّة المكرّمة، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٣م.
٧٩) العقود الفضيّة في أصول الإباضيّة: سالم بن محمّد سلمان الإباضيّ، لبنان، دار اليقغو العربيّة.
٨٠) العمدة في محاسن الشّعر وآدابه: تحقيق محمّد محي الدّين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥٥م.
٨١) العمدة والقوام.
٨٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاريّ: أحمد بن حجر العسقلانيّ، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، نشر وتوزيع رئاسة البحوث العلميّة، المملكة العربيّة السّعوديّة.
٨٣) فجر الإسلام: أحمد أمين.
٨٤) الفرق الإسلاميّة في الشّعر الأمويّ: النّعمان القاضي، القاهرة، الدار القوميّة للطّباعة والنّشر، ١٩٦٥م.
٨٥) في الشّعر العبّاسيّ والرّواية والفنّ: عزّ الدّين إسماعيل.
٨٦) القاموس المحيط: مجد الدّين بن يعقوب الفيروز أبادي.
٨٧) قطوف الرّيحان من زهر الأفنان: أحمد الحنبكيّ، الشّنقيطيّ، روضة الصّغير، الرّياض.
٨٨) قواعد الشّعر: أبو العبّاس أحمد بن محمّد يحيى المعروف بثعلب، تحقيق عبد المنعم خفاجي، القاهرة، ١٩٨٤م.
٨٩) الكامل في الأدب: المبرّد، تحقيق محمّد أبو الفضل، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٨٧م.
٩٠) الكامل في التّاريخ: ابن الأثير.
٩١) كنز العمّال في سنن الأقوال: علاء الدّين عليّ بن حسام الدّين الهنديّ.
٩٢) لباب الأدب: أسامة بن منقذ: تحقيق أحمد محمّد شاكر، القاهرة، مكتبة لويس سركيس، ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م.

٩٣) لسان العرب: جمال الدّين بن مكرم بن منظور الإفريقيّ، بيروت، دار صادر للطّباعة والنّشر، ١٣٧٤هـ = ١٩٥٥م.
٩٤) المثل السّائر: تحقيق احمد محمّد الحوفي وديودي طبانة، بيروت، لبنان، ١٩٥٩م.
٩٥) مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن محمّد السابوريّ الميدانيّ، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٦١م.
٩٦) المخيمر: أبو جعفر محمّد بن حبيب البغداديّ، رواية أبي سعيد الحسن بن الحسن السّكريّ، تحقيق أليزة ستير، المكتب التّجاريّ للطّباعة النّشر، بيروت.
٩٧) مجموعة الوثائق السّياسيّة في العصر النّبويّ لخلافة الرّاشدين، محمّد حميد الله.
٩٨) مخضرمي الدّولتين: حسين عطوان.
٩٩) المدوّنة الكبرى: الإمام مالك بن أنس.
١٠٠) المرأة في جاهليّتها وإسلامها: لويس شيخو، المكتبة الكاثوليكيّة.
١٠١) المرأة في العصور: أحمد زكي.
١٠٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصياغتها: عبد الله الطيب، دار جامعة الخرطوم للطّباعة والنّشر، ١٩٩٢م.
١٠٣) مروج الذّهب ومعادن الجوهر،: أبو الحسن عليّ بن الحسين بن عليّ السّعوديّ، تحقيق محمّد محي الدّين عبد الحميد، مطبعة الساعدة، ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م.
١٠٤) المعتمد بن عبّاد: علي أدهم، مكتبة القاهرة، ١٩٦٢م.
١٠٥) معجم البلدان: ياقوت الحمويّ الرّومي.
١٠٦) المغازي: الواقديّ محمّد بن عمر، تحقيق مارسن جونس، بيوت، عالم الكتب، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.
١٠٧) المفضّليّات: المفضّل الضّبيّ، تحقيق أحمد شاكر عبد السّلام محمّد هارون، طبعة دار المعارف، مصر، ١٣٦١هـ.
١٠٨) مقاتل الطّالبين: بيروت، لبنان، ١٩٩٧م.
١٠٩) مقاتل الإسلاميّين واختلاف المصلّين: أبو الحسن عليّ بن إسماعيل الأشعريّ، تحقيق هيلمون وينز، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.

١١٠) الملل والنّحل: أبو الفتح محمّد بن عبد الكريم الشّهرستانيّ، بيروت، لبنان، دار المعرفة، ١٩٧٥م.
١١١) من مذاهب الإسلاميّين: علي النّجّار، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٥م.
١١٢) المنية والأمل: المهدي لدين الله، تحقيق محمّد مشكور، دمشق، مؤسّسة الكتاب الإسلاميّة، ١٩٨٣م.
١١٣) النّساء في الجاهليّة والإسلام، محمّد ضياء الدّين الريسي.
١١٤) نفسيّة المراهق: رياض عسكر.
١١٥) النّقائض: طبعة لدين، ١٩١٣م.
١١٦) نهاية الأرب في فنون الأدب: النّويريّ.
١١٧) الوحشيّات: أبو تمّام حبيب بن أوس، تحقيق عبد العزيز الميمنيّ، ١٩٩٣م.

قائمة المحتويات

الإهداء		ب
الشّكر والتّقدير		ج
المقدّمة		د — ز
التّمهيد		١ - ٣
الفصل الأوّل:	**فنّ الرّثاء**	**٤ - ٣١**
المبحث الأوّل:	الرّثاء في اللّغة والاصطلاح	٦ - ٧
المبحث الثّاني:	حاجة الإنسان للرّثاء	٨ — ١١
المبحث الثّالث:	الرّثاء تعبير إنسانيّ	١٢ — ١٦
المبحث الرّابع:	أنواع الرّثاء	١٧ — ٢٦
المبحث الخامس:	تطوّر أساليب الرّثاء	٢٧ - ٣١
الفصل الثّاني	**رثاء النساء في العصر الجاهلي**	**٣٢- ٦٥**
المبحث الأوّل:	الرّثاء عند المرأة في الشّعر الجاهليّ	٣٤ - ٣٨
المبحث الثّاني:	التّناحر القبليّ وأثره في تطوّر شعر الرّثاء	٣٩ — ٤٥
المبحث الثّالث:	طبقات المرثيّين	٤٦- ٥٠
المبحث الرّابع:	فضائل المرثيّين	٥١- ٥٧
المبحث الخامس:	خصائص فنّ الرّثاء عند المرأة الجاهليّة	٥٨- ٦٥
الفصل الثّالث	**الرثاء في صدر الإسلام وعهد بني أميّة**	**٦٦- ٩٤**

المبحث الأوّل: أثر الإسلام في التّحوّل الاجتماعيّ للمرأة ٦٨- ٧٠
المبحث الثّاني: دور المرأة في الحروب الإسلاميّة ٧١- ٧٦
المبحث الثّالث: رثاء النّساء لشهداء الإسلام ٧٧- ٨١
المبحث الرّابع: المعاني المستحدثة في رثاء النساء ٨٢- ٨٨
المبحث الخامس: الخصائص الفنية في شعر الرثاء عند المرأة الإسلامية ٨٩- ٩٤

الفصل الرابع رثاء النساء في العصر العباسي ٩٥- ١٣٦
المبحث الأوّل: دور المرأة في ظهور الفرق الإسلامية ٩٨- ١١٠
المبحث الثّاني: رثاء النساء للخوارج ١١١- ١١٤
المبحث الثّالث: رثاء النساء للأبناء والزوج ١١٥- ١٢٦
المبحث الرّابع: اختلاف صور الرثاء وتطورها ١٢٧- ١٣١
المبحث الخامس: خصائص فن الرثاء عند المرأة في العصر العباسي ١٣٢- ١٣٦

الخاتمة ١٣٧- ١٤٢
ثبت المصادر والمراجع ١٤٣- ١٥٠
قائمة المحتويات ١٥١- ١٥٣